تناقض أهل الأهواء والبدع
دراسة تحليلية نقدية

د. سعود بن سعد بن نمر العتيبي

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة:

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده وعلى آله وصحبه وسلم.

أما بعد:

فإن هذا البحث يتناول الاستدلال بمسلك "التناقض" في المسائل العقدية عند المخالف لأهل السنة والجماعة من أهل الأهواء والبدع، وتكمن أهمية هذا الدليل في إبطال الدعاوى العقدية لدى المبتدعة من خلال هذا المسلك العقلي السليم في الاستدلال على القضايا العلمية.

ولقد اتخذت الدراسة المنهج التحليلي النقدي فتناولت أجزاء البحث من خلال الخطة التالية:

خطة البحث:

تضمنت خطة هذا البحث مقدمة وتمهيد وسبعة مباحث:

المبحث الأول: تعريف التناقض وأقسامه.

المبحث الثاني: العلاقة بين التناقض وبين التعارض والتضاد.

المبحث الثالث: أهمية معرفة التناقض وحجيته.

المبحث الرابع: أقسام المتناقضين من أهل الأهواء.

المبحث الخامس: أسباب الوقوع في التناقض.

المبحث السادس: صور التناقض.

المبحث السابع: آثار التناقض.

ثم ذكرت الخاتمة وأهم النتائج، وأعقبت ذلك فهرسًا للمصادر والمراجع.

* * *

التمهيد

الحمد لله القائل عن كتابه الكريم: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ ﴾ [النساء: ٨٢] فحمى كتابه- سبحانه- من الاختلاف والتناقض والتعارض، وصلى الله وسلم على النبي المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى وعلى آله وصحبه ومن اقتفى.

أما بعد:

فتعتبر معرفة التناقض بين الأقوال والأفكار مهمة عقلية بامتياز والناس في ذلك ليسوا على قدرة واحدة في كشف المتناقضات فبالنسبة للأمور الدنيوية والقيمية يميز الناس بين المتناقضات من خلال ما أودعه الله في عقولهم وفطرهم من المعارف البدهية الضرورية التي تعينهم على كشف التناقض، وكلما كانت هذه المعارف غير مشوهة استطاع الإنسان من خلالها- ومن خلال أيضا ما كسبه من معارف- التنبه لأوجه التناقض في الحياة، وقد يستطيع أيضا- ولكن بقدرة أقل- على التمييز بين المتناقضات في القضايا الدينية والعقدية وخاصة الأمور الكلية فيما يتعلق بالذات الإلهية من حيث وجودها واستحقاقها للعبادة لكنه قد لا يدرك مثلا أن صرف شيء من العبادة لغير الله يتناقض مع عبادته لله وفي هذا الإطار يعجز العقل البشري الصرف عن كشف أوجه التناقض، وهنا تكمن أهمية الوحي في كونه الحافظ الأمين والصادق المعين للعقل في كشف التناقضات مهما تنوعت وتدثرت بألبسة مشتبهة، فالوحي هو الضامن للعقل- إن اتبعه العقل- ألا يضل في الأمور الدينية بعامة والعقدية على وجه الخصوص، وكلما كان الإنسان للوحي أتبع كان نصيبه في إصابة الحق وكشف الباطل-مهما تلون- أكبر وأسرع.

وهنا كان تميز أهل الاسلام على أهل الأديان في إصابتهم للحق والابتعاد عن التناقض إذا ما قورنوا بالمخالف في الملة والدين، وكذلك كان حال أهل السنة والجماعة مع أهل الأهواء والبدع من أهل القبلة في ابتعادهم عن التناقض العقدي في مقولاتهم العقدية بل كانوا أقدر على كشف تناقض أهل الأهواء الذي لا حصر له، وذلك يرجع إلى أنأهل الأهواء لم يتبعوا الوحي المنـــزل حق الاتباع بل اتبعوا عقولهم وأهواءهم وكشوفهم وأذواقهم وأئمة الضلال فيهم، وقدموا كل ذلك على الكتاب والسنة حتى صار التناقض سمة من سماتهم في العقائد والأدلة على حد سواء.

ولأهمية مسلك التناقض فقد استعمله أهل السنة لإبطال ابتداع أهل الأهواء، قال الإمام القصاب الكرجي مبينا هذه الأهمية: "فإن قال قائل: فَمَالَك قلت في سورة الملائكة عند قوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقۡضَىٰ عَلَيۡهِمۡ فَيَمُوتُواْ ﴾ [فاطر: من الآية ٣٦]؛ إذ ناقضت المعتزلة في باب الوعيد والتائب مستغن بتوبته عن العفو والمغفرة، والله- تعالى- يقول في حبيب النجار كما ترى إخبارا عنه، وقد مات محسنا شهيدا، قيل: إنما قلته هناك على وجه المناقضة؛ ليتبين للقوم خطأ مذهبهم في الوعيد؛ إذ هم يَرون العقوبات والكرامات معا باكتساب العبيد محضا لا يشوبه تفضل على محسن، وَلا قضاء على مجرم، فأريتهم على قياد مذهبهم ما هدم بنيانهم الذي بنوه في الوعيد وفي هذا معا على الباطل؛ ليكونوا على يقين من كسر قولهم، وفساد نحلتهم، فأما نحن فلا ننكر أن الملائكة المقربين والأنبياء المرسلين محتاجون إلى فضل رحمة الله لا ينجي أحدا منهم عملُه إلا أن يتغمدهم الله بفضله ورحمته..."[1].

* * *

(١) النكت الدالة على البيان في أنواع العلوم والأحكام (٣/٧١٩-٧٢٠).

المبحث الأول
تعريف التناقض وأقسامه

أولا: تعريف التناقض

١- التناقض في اللغة:

الأصل الاشتقاقي للفظ التناقض هو "نقض"، ومعنى النقض في اللغة يدور على نكث شيء ما. وقال في معجم مقاييس اللغة:"(نَقَضَ) النُّونُ وَالْقَافُ وَالضَّادُ أَصْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى نَكْثِ شَيْءٍ"(١).

وعند النظر فيما ورد في معاجم اللغة العربية نجد الاستعمال اللغوي لهذه المفردة لا يخرج في عامته عن هذا الأصل الكلي وإن اختلفت العبارات، ومما له علاقة من معانيه مما نحن بصدده ما يلي:

(أ) نقض البناء والعهد والحبل:

قال في الصحاح: "النَقْضُ: نَقْضُ البناءِ والحَبْلِ والعهدِ، والنُّقاضَةُ: ما نُقِضَ من حبَل الشَعر.."(٢).

وقال في اللسان: "نقض: النَّقْضُ: إِفْسادُ مَا أَبْرَمْتَ مِنْ عَقْدٍ أَو بِناء ... النَقْضُ: ضِدُّ الإِبْرام، نقَضَه يَنْقُضُه نَقْضًا وانْتَقَضَ وتَناقَضَ. والنِّقْضُ: اسمُ البِناء المَنْقُوضِ إِذا هُدم"(٣).

---

(١) معجم مقاييس اللغة لأحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، مادة (نقض) (٤٧٠/٥)، المحقق: عبد السلام محمد هارون، الناشر: دار الفكر، عام النشر: ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

(٢) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية لأبي نصر إسماعيل بن حماد الجوهري، مادة (نقض) (١١٠/٣)، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، الناشر: دار العلم للملايين- بيروت، الطبعة: الرابعة، سنة: ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

(٣) لسان العرب لمحمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري، مادة (نقض) (٢٤٢/٧)، الناشر: دار صادر- بيروت، الطبعة: الثالثة - ١٤١٤هـ.

(ب) المراجعة والمرادة في الكلام:

قال في اللسان: "وَفِي حَدِيثِ صَوْمِ التَّطَوُّع: "فناقَضَني وناقَضْتُه"[١]، هِيَ مُفاعَلَةٌ مِنْ نَقْض الْبِنَاءِ وَهُوَ هَدْمُه. أَي: يَنْقُضُ قَوْلِي وأَنْقُضُ قَوْلَهُ، وأَراد بِهِ المُراجَعَةَ والمُرادَّةَ"[٢].

(ج) المخالفة:

قال في اللسان: "وناقضَه فِي الشَّيْءِ مُناقَضةً ونِقاضًا: خالَفَه؛ قَالَ:

وَكَانَ أَبُو العَيُوفِ أَخًا وَجَارًا ... وَذَا رَحِمٍ، فَقُلْتُ لَهُ نقاضا

أَي: ناقَضْتُه فِي قَوْلِهِ وهَجْوِه إِيّاي... والنَّقِيضةُ فِي الشِّعْرِ: مَا يُنْقَضُ بِهِ؛ وَقَالَ الشَّاعِرُ:

إِنِّي أَرَى الدَّهْرَ ذَا نَقْضٍ وإمرارِ

أَي: مَا أَمَرَّ عادَ عَلَيْهِ فنقَضَه، وَكَذَلِكَ المُناقَضةُ فِي الشِّعْرِ يَنْقُضُ الشاعرُ الآخرُ مَا قَالَهُ الأَوّل، والنَّقِيضةُ الِاسْمُ يُجْمَعُ عَلَى النَّقائض؛ وَلِذَلِكَ قَالُوا: نَقائضُ جَرِيرٍ وَالْفَرَزْدَقِ. ونَقِيضُك: الَّذِي يُخالِفُك"[٣].

(د) التناقض في القول:

قال في الصحاح: "والمُناقَضَةُ في القول: أن يتكلَّم بما يَتَناقَضُ معناه.."[٤].

ومن خلال ما سبق بيانه يتضح: أن القاسم المشترك بين تلك المعاني لمفهوم

---

(١) قال ابن الاثير في جامع الأصول: (٣٢٩/٦): "وأخرج أبو داود غير ما تقدَّم ذِكرُهُ في كتاب: الاعتصام، وكتاب: تلاوة القرآن، وفي رواية عطاء بن السائب عن أبيه عن ابن عمرو قال: قال لي رسولُ الله ﷺ: "**صُم من كلِّ شهر ثلاثةَ أيام، واقرأ القرآن في شهر، فناقضني وناقضته، فقال: صم يومًا وأفطر يومًا**...". قال الشيخ عبد القادر الأرناؤوط معلقا: "في نسخ أبي داود المطبوعة: فناقصني وناقصته، بالصاد المهملة. أي: جرى بيني وبينه مراجعة في النقصان".

(٢) لسان العرب: مادة (نقض) (٢٤٢/٧).

(٣) لسان العرب: مادة (نقض) (٢٤٢/٧).

(٤) الصحاح: مادة (نقض) (١١٠/٣).

التناقض في اللغة قائم على المنافاة أو التنافي بين شيئين، وهذا جلي في الفرق بين البناء والهدم مثلا وبين المخالفة بين الشاعرين، وهو نفي أحدهما للمعنى الذي قرره الآخر، وكذا المراجعة والمرادة بين المتحدثين كل منهما يريد إثبات مقالته، وكذا هو ظاهر بين من يتكلم بمعان متناقضة ينفي بعضها بعضا.

٢- التناقض في الاصطلاح:

لم يرد لفظ التناقض في الكتاب والسنة ولكن ورد أصله الذي منه اشتق في صيغ متعددة فورد (نقضهم) كما في قوله- تعالى-: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾﴾ [النساء: ١٥٥].

و(ينقضون) كما في قوله- تعالى-: ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [البقرة: ٢٧].

و(نقضت) كما في قوله- تعالى-: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [النحل: ٩٢].

وفي السنة مما ورد فيها لفظ (نقض): ما ورد عَنْ عَبد اللَّهِ بْنِ بُرَيدة، عَن أَبيهِ ﷺ قَالَ: قال رَسُول الله ﷺ: **"مَا نَقَضَ قَوْمٌ الْعَهْدَ إلاَّ كَانَ الْقَتْلُ بَيْنَهُمْ، ولاَ ظَهَرَتْ فَاحِشَةٌ فِي قَوْمٍ قَطُّ إلاَّ سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْمَوْتَ، ولاَ مَنَعَ قَوْمٌ قَطُّ الزَّكَاةَ إلاَّ حَبَسَ اللَّهُ عَنْهُمُ الْقَطْرَ"**(١).

(١) أخرجه الحاكم في كتاب: الجهاد، (١٣٦/٢)، برقم: (٢٥٧٧) وقال: صحيح على شرط مسلم. والبيهقي في السنن الكبرى (٣٤٦/٣)، كتاب: صلاة الاستسقاء، باب: الخروج من المظالم والتقرب إلى الله- تعالى- بالصدقة ونوافل الخير رجاء الإجابة، برقم: (٦١٩٠) قال البوصيري: "وَلَهُ شَاهِدٌ مِنْ=

ونحن نلحظ هنا أن معاني هذه الألفاظ يدور حول الأصل اللغوي للفظ (التناقض) ألا وهو: النكث للشيء، ويراد به في هذه المواضع: نكث العهود والمواثيق، فمرة يوجبون على أنفسهم التزام وإثبات عهد الله عليهم ومرة ينفونه وينقضونه ويستبيحون الخروج عليه، ومن خلال هذا المعنى اللغوي والشرعي لهذه الألفاظ انطلق أهل السنة في صياغتهم لمفهوم التناقض، فحقيقة التناقض لديهم قائمة على "أن يكون أحد الدليلين ينفي ما أثبته الآخر"(١).

ثانيا: أقسام التناقض

قسم أهل العلم التناقض إلى قسمين هما:

١- التناقض العام:

وعرفه شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله- أنه هو: "أن يكون موجب أحد الدليلين ينافي موجب الآخر: إما بنفسه، وإما بلازمه"(٢).

أما مثال ما كان التناقض فيه بين الدليلين بنفسه: من يقول: إن النبي محمدًا ﷺ لم يحج إلا حجة واحدة، وقوله بعد ذلك أو قول غيره: إنه ﷺ حج حجتين. ومن المعلوم بالإجماع أنه ﷺ لم يحج بعد مبعثه إلا مرة واحدة.

وأما ما كان التناقض فيه بلازمه فذلك "مثل: أن ينفي أحدهما لازم الآخر أو يثبت ملزومه، فإن انتقاء لازم الشيء يقتضي انتفاءه، وثبوت ملزومه يقتضي ثبوته.

ومن هذا الباب: الحكم على الشيئين المتماثلين من كل وجه مؤثر في الحكم بحكمين مختلفين، فإن هذا تناقض أيضاً؛ إذ حكم الشيء حكم مثله، فإذا حكم على

=حَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ، رَوَاهُ ابْنُ مَاجَهْ وَالْبَزَّارُ وَالْبَيْهَقِيُّ بإسناد حَسَنٍ". إتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة (٣/٣٠٥-٣٠٦) وصحح الحديث البوصيري في إتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة (٣/٣٠٥)، وقال الشيخ الألباني- رحمه الله-: (حسن) انظر حديث رقم: (٣٢٤٠) في صحيح الجامع.

(١) بيان تلبيس الجهمية (٤/٢٩٦).

(٢) درء تعارض العقل والنقل لشيخ الاسلام ابن تيمية الحراني (١/٢٧٣).

مثله بنقيض حكمه كان كما لو حكم عليه بنقيض حكمه"[1].

ومثاله: من يحرم خمر العنب ويبيح خمر الشعير، والعلة واحدة وهي: الإسكار.

وعرفه ابن تيمية- رحمه الله- بعبارة أخرى هي أكثر وضوحا فقال: "التَّنَاقُضَ: اخْتِلَافُ مَقَالَتَيْنِ بِالنَّفْيِ وَالْإِثْبَاتِ، فَإِذَا كَانَ فِي وَقْتٍ قَدْ قَالَ: إنَّ هَذَا حَرَامٌ، وَقَالَ فِي وَقْتٍ آخَرَ فِيهِ أَوْ فِي مِثْلِهِ: إنَّهُ لَيْسَ بِحَرَامٍ، أَوْ قَالَ مَا يَسْتَلْزِمُ أَنَّهُ لَيْسَ بِحَرَامٍ فَقَدْ يُنَاقِضُ قَوْلَاهُ"[2].

والتناقض بهذا المعنى أحد معاني لفظ الاختلاف الذي نفاه البارئ- عز وجل- عن كتابه في قوله- تعالى-: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ ﴾ [النساء: ٨٢].

قَالَ ابْن عَبَّاس في تفسيره لمعنى الاختلاف في الآية: "لَيْسَ فِي الْقُرْآن تنَاقض وَلَا تفَاوت"[3].

وبهذا التفسير قال قتادة وابن زيد"[4].

قال ابن جرير:" يَعْنِي- جَلَّ ثَنَاؤُهُ- بقَوْلِهِ: **{أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ}** أَفَلَا يَتَدَبَّرُ الْمُبَيِّتُونَ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ لَهُمْ يَا مُحَمَّدُ كِتَابَ اللَّهِ، فَيَعْلَمُوا حُجَّةَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ فِي طَاعَتِكَ وَاتِّبَاعِ أَمْرِكَ، وَأَنَّ الَّذِي أَتَيْتَهُمْ بِهِ مِنَ التَّنزِيلِ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِمْ، لِاتِّسَاقِ مَعَانِيهِ

---

(١) السابق: نفس الصفحة.

(٢) الفتاوى الكبرى لابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (٢٧/٤) الناشر: دار الكتب العلمية الطبعة: الأولى، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م.

(٣) تفسير القرآن لابي المظفر، منصور بن محمد السمعاني (٤٥٣/١)،المحقق: ياسر بن إبراهيم وغنيم بن عباس بن غنيم، الناشر: دار الوطن، الرياض- السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤١٨هـ- ١٩٩٧م.

(٤) جامع البيان عن تأويل آي القرآن لمحمد بن جرير الطبري (٢٥١/٧-٢٥٢)، تحقيق: الدكتور عبد الله ابن عبد المحسن التركي بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات الإسلامية بدار هجر الدكتور عبد السند حسن يمامة، الناشر: دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١م.

وَائْتِلَافِ أَحْكَامِهِ وَتَأْيِيدِ بَعْضِهِ بَعْضًا بِالتَّصْدِيقِ، وَشَهَادَةِ بَعْضِهِ لِبَعْضٍ بِالتَّحْقِيقِ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ لَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَاخْتَلَفَتْ أَحْكَامُهُ وَتَنَاقَضَتْ مَعَانِيهِ وَأَبَانَ بَعْضُهُ عَنْ فَسَادِ بَعْضٍ"(١).

وقال الإمام الواحدي: "قال أهل المعاني: ﴿لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: من الآية ٨٢]. أي: لو كان من عند مخلوق لكان على قياس كلام العباد، بعضه بليغ حسن، وبعضه مرذول فاسد، فلما كان جميع القرآن بليغا و لم يختلف، عرف أنه من عند الله، وليس بحمد الله في القرآن اختلاف تناقض، ولا اختلاف تفاوت"(٢).

ولقد قرر هذا المعنى ابن تيمية- - رحمه الله-- بقوله: "وهذا التناقض العام هو الاختلاف الذي نفى الله- تعالى- عن كتابه بقوله- عز وجل-:﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء: ٨٢]، وهو الاختلاف الذي وصف الله به قول الكفار في قوله- تعالى-:﴿ إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴿٨﴾ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴿٩﴾﴾ [الذاريات: ٨-٩]"(٣).

٢-التناقض الخاص:

وعرفه شيخ الاسلام ابن تيمية بأنه: "اختلاف قضيتين بالسلب والإيجاب على

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن لمحمد بن جرير الطبري (٢٥١/٧-٢٥٢)، تحقيق: الدكتور عبد الله ابن عبد المحسن التركي بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات الإسلامية بدار هجر الدكتور عبد السند حسن يمامة، الناشر: دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.

(٢) الوسيط في تفسير القرآن المجيد: لأبي الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري، الشافعي (٨٦/٢)، تحقيق وتعليق: الشيخ/ عادل أحمد عبد الموجود، الشيخ/ علي محمد معوض، الدكتور أحمد محمد صيرة، الدكتور أحمد عبد الغني الجمل، الدكتور عبد الرحمن عويس، قدمه وقرظه: الأستاذ الدكتور عبد الحي الفرماوي، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤١٥هـ- ١٩٩٤م.

(٣) درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (٢٧٣/١-٢٧٥).

وجه يلزم من صدق إحداهما كذب الأخرى"[1].

وذلك كقولك للشيء إما أن يكون، وإما أن لا يكون. كأن تقول: إما أن يكون حيا أو ميتا، عالما أو جاهلا، قادرا أو عاجزا، موجودا أو معدوما.

وهذا التناقض الخاص بهذا التعريف نسبه ابن تيمية إلى بعض أهل الكلام والمنطق[2].

فخاصيته لديهم تقوم على ما يلي[3]:

١- استحالة اجتماع طرفيه في الصدق والكذب.

ومثاله: زيد إنسان، زيد ليس بإنسان، فيستحيل الجمع بين وصف الإنسانية ونفيها في آن في حق زيد؛ لأن أحدهما صادقة، وهو: وصف ثبوت الإنسانية، والطرف الآخر كاذب، وهو: نفي صفة الإنسانية عن زيد.

٢- أنه لا واسطة بين الطرفين.

أي: إنه لا وصف وسط بين الوصفين يمكن أن يوصف به زيد فهو إما إنسان أو ليس بإنسان.

٣- لا استحالة لأحد الطرفين إلى الآخر من جهة واحدة.

أي: إنه إن استحال أحد الطرفين فصار في معنى الآخر فلا تناقض حينئذ: كقولك: زيد إنسان، زيد ليس بجماد، ونحوه[4].

---

(١) درء تعارض العقل والنقل: (٢٧٣/١).

(٢) انظر: المبين في شرح الفاظ الحكماء والمتكلمين لسيف الدين الآمدي: (٣٢٨)، تحقيق: عبد الأمير الأعسم، والمعجم الفلسفي لجميل صليبا: (٣٤٩/١).

(٣) انظر: المبين في شرح ألفاظ الحكماء والمتكلمين للآمدي: (٣٢٨) والمعجم الفلسفي لصليبا: (٣٤٩/١).

(٤) انظر: التدمرية: تحقيق الإثبات للأسماء والصفات وحقيقة الجمع بين القدر والشرع لابن تيمية: (١٥٢-١٥٤).

وبناء على مفهوم التناقض الخاص لديهم وخاصيته التي يقوم عليها يلاحظ ما يلي:

الأول: أن التناقض لديهم بين شيئين يكونان ثبوتًا وانتفاءً فقط.

الثاني: أن يكون النفي في التناقض فقط لعين ما يثبته الآخر.

الثالث: اشتراطهم وجود صيغة النفي: كحرف (لا) و(ليس)[(١)].

وإن كان كثير من أهل النظر يرى أن النقيضين هما اللذان لا يجتمعان ولا يرتفعان، والضدان لا يجتمعان لكن قد يرتفعان.

والفرق بين الطائفتين: أن التناقض في عرف هؤلاء أعم منه في عرف أولئك، "فإن ما لا يجتمعان ولا يرتفعان قد يكونان ثبوتيين، وقد يكونان عدميين، وقد يكونان ثبوتاً وانتفاءً، ولو كان أحدهما وجوداً والآخر عدمًا فقد يعبر عنهما بصيغة الإثبات التي لا تدل بنفسها على التناقض الخاص: كما إذا قيل للموجود: إما أن يكون قائمًا بنفسه، وإما أن يكون قائمًا بغيره، وإما أن يكون واجبًا بنفسه، وإما أن يكون ممكنًا بنفسه، وإما أن يكون قديمًا، وإما أن يكون محدثاً، ونحو ذلك.

فمن المعلوم أن تقسم الموجود إلى قائم بنفسه وغيره، وواجب وممكن، وقديم ومحدث، تقسيم حاصر كتقسيم المعلوم إلى الثابت والمنفي، وهذان القسمان لا يجتمعان ولا يرتفعان كما أن الوجود والعدم لا يجتمعان ولا يرتفعان"[(٢)].

أما ما تتفق عليه الطائفتان فهو: اشتراط أن يكون النفي فقط لعين ما يثبته الآخر.

وأما القاسم المشترك بين التناقض العام والخاص فهو: أن يكون أحد الدليلين مناقضا لمدلول الآخر.

---

(١) انظر: المعجم الفلسفي لصليبا: (١/٣٥٠).

(٢) درء تعارض العقل والنقل (٥/٢٧٢).

لكن فرق بينهما استنادا إلى مدلول التناقض في اللغة المتوافق مع المعنى الشرعي القائم على ثلاثة أمور:

الأول: أن التناقض العام يكون بين شيئين سواء كانا ثبوتيين، وقد يكونان عدميين، وقد يكونان ثبوتاً وانتفاءً، بينما التناقض الخاص يشترط فيه عند بعض المناطقة والمتكلمين: أن يكونا ثبوتاً وانتفاءً فقط.

الثاني: أن التناقض العام لا يشترط النفي فيه أن يكون فقط لعين ما يثبته الآخر بل يشمل لوازمه أيضا.

الثالث: أن التناقض العام لا يشترط وجود صيغة النفي لدلالة على وجود التناقض بينما التناقض الخاص يشترطها؛ لأنه أصلا ضيق على نفسه باشتراط أن يكون التناقض فقط بين أمرين يكونان ثبوتاً وانتفاءً.

وهذا ما قرره ابن تيمية- رحمه الله- في بيانه الفرق بين مفهوم التناقض عند طوائف أهل النظر على اختلافهم وبين أهل اللغة، فقال: "وأما أهل اللغة فالنقيضان عندهم أعم من هذا كله، كالمتنافيين، فكل ما نفى أحدهما الآخر فقد نقضه وأزاله وأبطله، فيسمونه نقيضه"(١).

أي: إنه لا يشترط فقط أن يكون النفي عين ما يثبته الآخر كما يقوله كثير من المناطقة وعلماء الكلام بل لوازمه داخلة في مفهوم التناقض أيضا.

* * *

(١) السابق: (٥/٢٧٣).

المبحث الثاني
العلاقة بين التناقض و التعارض والتضاد

عندما نعود إلى كتب اللغة التي تعرضت لأصول هذه الألفاظ نجدها متقاربة المعنى[١] فجميعها تشترك في امتناع الجمع بين الشيئين المتناقضين والمتعارضين والضدين؛ لأنها جميعا متنافية. أي: إن بعضها ينفي بعضا، فلا بد من بقاء أحد الضدين أو المتعارضين أو النقيضين وزوال الآخر المقابل له. قال شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله- منوها إلى هذا المعنى: "ولفظ التنافي والتضاد والتناقض والتعارض ألفاظ (متقاربة) في أصل اللغة، وإن كانت تختلف فيها الاصطلاحات، فكل مضاد فهو مستلزم للتناقض اللغوي؛ ولهذا يسمي أهل اللغة أحد الضدين نقيض الآخر، وكل تعارض فهو مستلزم للتناقض اللغوي؛ لأن أحد الضدين ينقض الآخر. أي: يلزم من ثبوته عدم الآخر، كما يلزم من ثبوت السواد انتفاء البياض"[٢].

أما من حيث الاصطلاح فلكل وجهة هو موليها، فمثلا تجد كثيرا من أهل الكلام والمنطق يفرقون بين التناقض أو النقيضين وبين الضدين فيقولون: "النقيضان هما اللذان لا يجتمعان ولا يرتفعان، والضدان لا يجتمعان لكن قد يرتفعان"[٣].

بينما تجد علماء أهل السنة لا يعتبرون أن هناك فرقا جوهريا في المعنى الاصطلاحي بين التعارض والتناقض والتضاد وذلك يرجع الى مراعاتهم للمعنى اللغوي لهذه الألفاظ التي هي شديدة التقارب؛ لأن مبناها جميعا على امتناع الجمع بين الأمرين المتنافيين؛

(١) انظر: معجم مقاييس اللغة لابن فارس (٣/٣٦٠) مادة (ضدَّ)، و(٤/٢٦٩) مادة (عرض)، والصحاح للجوهري (٢/٥٠٠) مادة (ضدد)، و(٣/١٠٨٢) مادة (عرض)، وتهذيب اللغة للأزهري (١١/٣١٣) (باب الضاد والدال)، و(١/٢٨٨) (باب العين والضاد مع الراء).
(٢) درء تعارض العقل والنقل (٥/٢٧١).
(٣) انظر: المبين في شرح الفاظ الحكماء والمتكلمين للآمدي: (ص٣٧٩).

ولهذا تجدهم يفسرون التعارض بالتناقض ومن ذلك قول الإمام ابن قدامة المقدسي عندما أراد تعريف التعارض فقال: "واعلم أن التعارض: هو التناقض"(١).

ويفسرون التعارض والتضاد بمعنى واحد ومن ذلك: قول الإمام ابن عبد البر: "إِنَّمَا الْمُتَعَارِضُ وَالْمُتَضَادُّ الْمُتَنَافِي الَّذِي لَا يَثْبُتُ بَعْضُهُ إِلَّا بِنَفْيِ بَعْضٍ"(٢).

كما سار على هذا المنهاج شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله- عندما أراد تعريف الضد فقال: "فَإِن الضِّدّ يُرَاد بِهِ: مَا يمْنَع ثُبُوت الآخر كَمَا يُقَال فِي الْأَعْرَاض المتضادة. مثل: السوَاد وَالْبَيَاض، وَيَقُول النَّاس: الضدان لَا يَجْتَمِعَانِ وَيمْتَنع اجْتِمَاع الضدين، وَهَذَا التضاد عِنْد كثير من النَّاس لَا يكون إِلَّا فِي الْأَعْرَاض"(٣).

فهنا عرف ابن تيمية الضد بأمر هو في الحقيقة متحقق معناه في التناقض والتعارض ألا وهو: مَا يمْنَع ثُبُوت الآخر. بل هذا في الحقيقة عند النظر والتأمل يدخل فيه كل ما خالف امر الله فهو يعتبر مناقضا ومضادا ومعارضا له، ووجه ذلك: أن المقر بإيجاب ما أوجبه الشارع أو تحريم ما حرمه ثم لا يمتثل بفعل الواجبات الشرعية أو لا ينتهي عما نهى عنه الشارع فهو في الحقيقة متناقض مع نفسه يعيش حالة من التعارض والتضاد بين ما يؤمن به حقا مما جاءه من أحكام الشرع وبين تركه للالتزام بموجبات ذلك الإيمان، ويمكن أن يستدل على هذا المعنى من القرآن الكريم بقوله- تعالى-: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [البقرة: ٤٤].

---

(١) روضة الناظر وجنة المناظر في أصول الفقه على مذهب الإمام أحمد بن حنبل لموفق الدين عبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسي (٣٨٩-٣٩١) الناشر: مؤسسة الريّان للطباعة والنشر والتوزيع ،الطبعة: الثانية، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م.

(٢) التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد لأبي عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر القرطبي (٨٦/١١).

(٣) مجموع الفتاوى لشيخ الاسلام بن تيمية الحراني (٣٨٤/٦)، المحقق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، الناشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية ، عام النشر: ١٤١٦هـ/١٩٩٥م.

قال ابْنِ عَبَّاسٍ فِي تفسير هذه الآية: "أَيْ: تَنْهَوْنَ النَّاسَ عَنِ الْكُفْرِ بِمَا عِنْدَكُمْ مِنَ النُّبُوَّةِ وَالْعَهْدِ مِنَ التَّوْرَاةَ، وَتَتْرُكُونَ أَنْفُسَكُمْ. أَيْ: وَأَنْتُمْ تَكْفُرُونَ بِمَا فِيهَا مِنْ عَهْدِي إِلَيْكُمْ فِي تَصْدِيقِ رَسُولِي، وَتَنْقُضُونَ مِيثَاقِي، وَتَجْحَدُونَ مَا تَعْلَمُونَ مِنْ كِتَابِي"(١).

عَنْ قَتَادَةَ: "فِي قَوْلِهِ: ﴿ ۞ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ ﴾ [البقرة: من الآية ٤٤] قَالَ: كَانَ بَنُو إِسْرَائِيلَ يَأْمُرُونَ النَّاسَ بِطَاعَةِ اللَّهِ وَبِتَقْوَاهُ وَبِالْبِرِّ وَيُخَالِفُونَ، فَعَيَّرَهُمُ اللَّهُ"(٢).

قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ:"يَعْنِي بِقَوْلِهِ: ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ **[البقرة: من الآية ٤٤]**: أَفَلَا تَفْقَهُونَ وَتَفْهَمُونَ قُبْحَ مَا تَأْتُونَ مِنْ مَعْصِيَتِكُمْ رَبَّكُمُ الَّتِي تَأْمُرُونَ النَّاسَ بِخِلَافِهَا وَتَنْهَوْنَهُمْ عَنْ رُكُوبِهَا وَأَنْتُمْ رَاكِبُوهَا، وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ الَّذِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَقِّ اللَّهِ وَطَاعَتِهِ فِي اتِّبَاعِ مُحَمَّدٍ وَالْإِيمَانِ بِهِ وَبِمَا جَاءَ بِهِ مِثْلُ الَّذِي عَلَى مَنْ تَأْمُرُونَهُ بِاتِّبَاعِهِ"(٣).

وأما من أقوال السلف، فمن ذلك: ما ورد عن عمران بن الحصين: أنه حدث عن النبي ﷺ بحديث: **"الحياء من الإيمان"**(٤) فاعترض رجل عنده في مجلس عمران بن الحصين، "فقال رجل عنده: في الحكمة مكتوب إن من الحياء ضعفا، ومنه وقارا". يعني: إن الحياء ينقسم إلى قسمين: قسم ضعف، وقسم وقار، فأنكر عمران بن حصين على هذا الرجل أشد الإنكار لما عارض السنة، وقال: "أحدثك عن رسول الله ﷺ

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن: (٦١٣/١).
(٢) السابق: (٦١٤/١).
(٣) السابق: (٦١٦/١).
(٤) الإبانة الصغرى لابن بطة: (ص١١٠)، وأصل هذا الحديث أخرجه البخاري ومسلم من حديث عبد الله بن عمر –رضي الله عنهما– أن رسول الله ﷺ مر على رجل من الأنصار، وهو يعظ أخاه في الحياء، فقال رسول الله ﷺ: «دعه فإن الحياء من الإيمان». صحيح البخاري، كتاب: الإيمان، باب: الحياء من الإيمان، (١٤/١)، برقم (٢٤)، وصحيح مسلم، كتاب: الإيمان، باب: شعب الإيمان، (٦٣/١)، برقم (٣٦).

وتحدثني عن صحفك، لا أكلمك أبدا"[1].

قال الإمام ابن بطة الحنبلي معلقا على هذه القصة: "عمران ﷺ روى هذا الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: "**الحياء من الإيمان** ".

كما نبه ابن تيمية- رحمه الله- بقوله عند بيان المعنى الاصطلاحي لضد: "وَقَدْ يُرَادُ" بِالضِّدِّ "الْمُعَارِضُ لِأَمْرِهِ وَحُكْمِهِ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مَانِعًا مِنْ وُجُودِ ذَاتِهِ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "**مَنْ حَالَتْ شَفَاعَتُهُ دُونَ حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ فَقَدَ ضَادَّ اللَّهَ فِي أَمْرِهِ**"[2]. رَوَاهُ أَبُو دَاوُد. وَتَسْمِيَةُ الْمُخَالِفِ لِأَمْرِهِ وَحُكْمِهِ ضِدًّا كَتَسْمِيَتِهِ عَدُوًّا، وَبِهَذَا الِاعْتِبَارِ فَالْمُعَادُونَ الْمُضَادُّونَ لِلَّهِ كَثِيرُونَ"[3].

* * *

(١) الإبانة الصغرى لابن بطة: (ص١١٠).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده، في مسند عبد الله بن مسعود (٢٨٣/٩)، برقم (٥٣٨٥)، وأبو داود في سننه، كتاب: الأقضية، باب: فيمن يعين على خصومة من غير أن يعلم أمرها، (٣٠٥/٣)، برقم (٣٥٩٧)، والحاكم في مستدركه، في كتاب: البيوع، (٣٢/٢)، برقم (٢٢٢٢)، وقال: "هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه"، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في الإرواء (٣٤٩/٧)، برقم (٢٣١٨).

(٣) مجموع الفتاوى: (٣٨٤/٦-٣٨٥) .

المبحث الثالث
أهمية معرفة التناقض وحجيته

١- أهمية معرفة التناقض:

من أبرز الطرق العقلية التي استعملها السلف في إبطال عقائد خصومهم من أهل الأهواء والبدع: استعمال مسلك التناقض أو الاستدلال بالتناقض وتكمن أهميته في أنه يظهر فساد وبطلان قول الخصم من داخله. أي: من كلام الخصم نفسه أو بتعبير ابن تيمية- رحمه الله-: " فَإِنَّ التَّنَاقُضَ أَوَّلُ مَقَامَاتِ الْفَسَادِ"[(١)].

وهذه الطريقة تحتاج إلى بصيرة وتوفيق إلهي كما تحتاج إلى قدرة عقلية تكشف أوجه التناقض في مقولة الخصم وإلى أمانة علمية بعدم التقول على المخالف مالم يقله وأئمة السلف- رضوان الله عليهم- لهم أوفر الحظ والنصيب من تلك الخصال؛ ولذا بزوا كل من دونهم فأتوا بالعجب العجاب بأخصر خطاب وأقربه وصولا لفهم ذوي الألباب.

ولذا أكثر السلف من استعمالهم له في نقدهم لعقائد أهل الأهواء وخاصة في كتبهم المدونة[(٢)] بل منهم من عقد فصولا في كتبه، ومن ذلك: الإمام أبو نصر السجزي فلقد عقد في رسالته لأهل زبيد فصلا بعنوان: "الفصل الرابع: في (إقامة البرهان على أنهم مخالفون لمقتضى العقل بأقاويل متناقضة مظهرون لخلاف ما يعتقدونه)"[(٣)].

---

(١) مجموع الفتاوى لشيخ الاسلام بن تيمية (٣٨٩/٦).

(٢) كما سيأتي بعد قليل في ثنايا البحث.

(٣) انظر: رسالة السجزي إلى أهل زبيد في الرد على من أنكر الحرف والصوت: لأبي نصر عبيد الله بن سعيد بن حاتم السجزيّ الوائلي البكري، (١٦٣/١) المحقق: محمد با كريم با عبد الله الناشر: عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية ،الطبعة: الثانية، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م.

بل عقد العزم على تأليف كتاب في كشف التناقض العقلي عند المتكلمين بعامة والأشاعرة خاصة فقال: "ومخالفة الأشعري وأضرابه للعقليات، ومناقضتهم تكثر ولعل الله- سبحانه- يسهل لنا جمع ذلك في كتاب بمنه، وإنما أشرنا هاهنا إلى يسير منه وفيه مقنع إن شاء الله- تعالى-"(١).

إلا أنه ينبغي أن يتنبه إلى أن اظهار تناقض قول الخصم لا يلزم ضرورة صحة قول المخالف له في المسألة بدون أن تكون للمخالف أدلة صحيحة تثبت سلامة قوله. قال الإمام السمعاني في تنويهه لهذه المسألة المهمة: "وقد يكون الخصمان على مقالتين مختلفتين كلتاهما باطلة ويكون الحق في ثالثة غيرهما، فمناقضة أحدهما صاحبه غير مصحح مذهبه وإن كان مفسدا به قول خصمه؛ لأنهما مجتمعان معا في الخطأ مشتركان فيه كقول الشاعر:

حجج تهافت كالزجاج تخالها ... حقا وكل كاسر ومكسور

وإنما كان الأمر كذلك؛ لأن واحدا من الفريقين لا يعتمد في مقالته التي ينصرها أصلا صحيحا، وإنما هو أوضاع وآراء تتكافأ وتتقابل فيكثر المقال ويدوم الاختلاف ويقل الصواب"(٢).

ومن الأمثلة على هذا المعنى: ما أورده ابن تيمية- رحمه الله- في مناقشته لابن رشد في مسألة إثبات الصفات فقال: "وأما قولك: إن دليل الأشعرية أيضًا لا يفضي إلى إثبات أول قديم ليس بمركب، وإنما يفضي إلى إثبات أول ليس بحادث فهذا أيضًا توكيد لإثبات الصفات فإن مرادك بالمركب ما كان موصوفًا بالصفات ولا ريب أن الأدلة الدالة على إثبات الصانع ليس فيها- والحمد لله- ما ينفي إثبات الصفات، فإن

(١) رسالة السجزي إلى أهل زبيد في الرد على من أنكر الحرف والصوت: (١/١٨٠).
(٢) صون المنطق والكلام عن فني المنطق والكلام للإمام السيوطي: (ص ١٠٠) نشر وتعليق: علي سامي النشار.

قلت: فهم ينفون التجسيم بناء على انتفاء التركيب ولا دليل لهم على ذلك.

قيل لك: هذه حجة جدلية، وغايته أن تلزمهم التناقض، وذلك لا يقتضي صحة قولك الذي نازعوك فيه، وهم نازعوك في إثبات الصفات، فقلت: إن إثبات الصفات يستلزم التركيب، وأنت لم تقم دليلاً على نفي هذا التركيب، فلم تقم دليلاً على نفي الصفات، وقالوا لك أيضًا: لا دليل لك على نفي التجسيم، فإن عمدتك هو نفي الصفات العائد إلى نفي التركيب، وقد ظهر ذلك"[(١)].

وهنا يظهر الفارق بين أهل السنة وأهل البدعة، فأهل السنة يستعملون مسلك التناقض؛ لإظهار بطلان قول أهل الأهواء لعلهم يراجعون الحق ويتركون بدعتهم، وذلك محاولة من أهل السنة للفت عقول المبتدعة لأوجه الخلل في قولهم فهي عملية إنعاش عقلي ثم لا يكتفي أهل السنة بذلك، فهم سرعان ما يكرون بأدلة الكتاب والسنة والعقل على صحة مقولتهم العقدية بينما أهل الأهواء كثيرا ما يعجزون عن إثبات صحة مقولتهم العقدية من خلال القرآن والسنة فيلجؤون لدليل التناقض من باب إظهار تناقض خصمهم؛ لإبطال قوله لكنهم يعجزون عن الإتيان بوجه الحق في المسألة، ومن الأمثلة على صحة قولنا هنا: ما نقله شيخ الإسلام ابن تيمية عن أبي القاسم الأنصاري الأشعري في مسألة: "جواز إطلاق لفظ الغير على صفات الباري": "ومن تأمل كلام فحول النظر في هذه المسألة علم أن الرازي قد استوعب ما ذكروه، وأن النفاة ليست معهم حجة عقلية تثبت على السبر، وإنما غايتهم إلزام التناقض لمن يخالفهم من المعتزلة والكرامية والفلاسفة.

ومن المعلوم أن تناقض المنازع يستلزم فساد أحد قوليه، لا يستلزم فساد قوله بعينه الذي هو مورد النـــزاع؛ ولهذا كان من ذم أهل الكلام المحدث من أهل العلم؛ لأنهم

(١) درء تعارض العقل والنقل: (٤٣٧/٣).

يصفونهم بهذا، ويقولون: يقابلون فاسداً بفاسد، وأكثر كلامهم في إبداء مناقضات الخصوم. وأيضًا فغير ذلك الخصم لا يلتزم مقالته التي ناقض به المورد النـــزاع، كما في هذه المسألة، فإنه وإن كانت الكرامية قد تناقضوا فيها فلم يتناقض فيها غيرهم من الأئمة والسلف وأهل الحديث وغيرهم من طوائف أهل النظر والكلام. وقد قال أبو القاسم الأنصاري – شيخ الشهرستاني وتلميذ أبي المعالي– في شرح الإرشاد: (أجود ما يتمسك به في هذه المسألة: تناقض الخصوم) وهو كما قال: فإنه لم يجد لمن تقدمه في ذلك مسلكًا سديدًا، لا عقليًّا ولا سمعيًّا"(١).

٢– حجية التناقض:

يعتبر التناقض سمة من سمات المخالف للكتاب والسنة من الكفار والمنافقين وأهل الأهواء والبدع على تنوع ضلالاتهم وذلك راجع في الحقيقة لفساد عقائدهم ومناهجهم التي يسيرون عليها ولأجل ذلك استعمل القرآن الكريم تناقض المخالفين للدين القويم لدلالة على بطلان ما هم عليه من الدين والاعتقاد، وهذا من أقوى الدلائل على حجية الاحتجاج بمسلك التناقض ومن صور احتجاج القرآن بمسلك التناقض ما يلي:

أولا: تناقض المشركين:

من الأمثلة على ما نحن بصدده: ما قصه الله علينا في كتابه الكريم عن صورة مـــن صور تناقض المشركين في حق النبي ﷺ وما جاء به من القرآن، قال– تعالى–:﴿ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ۖ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّى يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٤﴾ بَلْ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٥﴾ ﴾ [الأنبياء: ٣– ٥].

(١) السابق (٢/١٨٧–١٨٨).

فهم- هنا- مرة يصفون النبي ﷺ بأنه ساحر ومرة يصفون القرآن بأنه عبارة عن أحلام منامية لا حقيقة لها في الواقع وهذا التهام منهم مبطن لعقله ﷺ بأنه مجنون، ومرة يصفونه بأنه مفتر. أي: اختلق هذا القرآن- حاشاه صلى الله عليه وسلم- ومرة يصفونه بأنه شاعر وهذه الصفات لا يمكن الجمع بينها في حال فهي في غاية التناقض.

قال الإمام السمعاني: "وَالْمرَاد من الْآيَة: بَيَان تناقضهم فِي قَوْلهم، وَأَنَّهُمْ غير مستقرين على شَيْء وَاحِد"(١).

ثانيا: تناقض اليهود:

ومن الأمثلة على ذلك: قوله- تعالى- في كشفه لتناقض اليهود: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾ وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا ۖ قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾ [البقرة: ٩١- ٩٣].

فالله ﷻ قص علينا في هذه الآيات تناقض اليهود من خلال إجابتهم لدعوة النبي ﷺ إياهم بأن يؤمنوا بما جاءهم به من الحق الذي تصدقه كتبهم فكان جوابهم بأنهم يؤمنون بما أنزل إليهم فقط، فكشف الله تناقضهم من خلال أمره- سبحانه- لنبيه ﷺ أن يقول لهم: إن قتلهم أنبياءهم مع دعواهم الإيمان أمران لا يجتمعان فهم مأمورون

(١) تفسير القرآن لأبي المظفر، منصور بن محمد بن عبد الجبار بن أحمد المروزي السمعاني (٣٦٩/٣) المحقق: ياسر بن إبراهيم وغنيم بن عباس بن غنيم الناشر: دار الوطن، الرياض- السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤١٨هـ- ١٩٩٧م.

بالإيمان بهم وتوقيرهم ونصرتهم.

قال الإمام ابن جرير: "يَعْنِي- جَلَّ ذِكْرُهُ- بِقَوْلِهِ: ﴿ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَآءَ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: من الآية ٩١] قُلْ يَا مُحَمَّدُ لِيَهُودِ بَنِي إِسْرَائِيلَ الَّذِينَ إِذَا قُلْتَ لَهُمْ: ﴿ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ﴾ [البقرة: من الآية ٩١] لِمَ تَقْتُلُونَ إِنْ كُنْتُمْ يَا مَعْشَرَ الْيَهُودِ مُؤْمِنِينَ بِمَا أَنـــزلَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ﴿ أَنْبِيَآءَ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: من الآية ٩١] وَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ فِي الْكِتَابِ الَّذِي أَنـــزلَ عَلَيْكُمْ قَتْلَهُمْ، بَلْ أَمَرَكُمْ فِيهِ بِاتِّبَاعِهِمْ وَطَاعَتِهِمْ وَتَصْدِيقِهِمْ، وَذَلِكَ مِنَ اللَّهِ- جَلَّ ثَنَاؤُهُ- تَكْذِيبٌ لَهُمْ فِي قَوْلِهِمْ: ﴿ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ﴾ [البقرة: من الآية ٩١] وَتَعْيِيرٌ لَهُمْ"(١).

وقال الإمام فخر الدين الرازي مبينا وجه التناقض لدى اليهود: "أَنَّهُ- سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- بَيَّنَ مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى أَنَّ دَعْوَاهُمْ كَوْنَهُمْ مُؤْمِنِينَ بِالتَّوْرَاةِ مُتَنَاقِضَةٌ مِنْ وُجُوهٍ أُخَرَ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ التَّوْرَاةَ دَلَّتْ عَلَى أَنَّ الْمُعْجِزَةَ تَدُلُّ عَلَى الصِّدْقِ وَدَلَّتْ عَلَى أَنَّ مَنْ كَانَ صَادِقًا فِي ادِّعَاءِ النُّبُوَّةِ فَإِنَّ قَتْلَهُ كُفْرٌ، وَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ كَانَ السَّعْيُ فِي قَتْلِ يَحْيَى وَزَكَرِيَّا وَعِيسَى- عَلَيْهِمُ السَّلَامُ- كُفْرًا فَلِمَ سَعَيْتُمْ فِي ذَلِكَ إِنْ صَدَقْتُمْ فِي ادِّعَائِكُمْ كَوْنَكُمْ مُؤْمِنِينَ بِالتَّوْرَاةِ"(٢).

ولم يختلف منهج المبتدعة على اختلاف أصنافهم عن منهج من حاججهم القرآن من المشركين واليهود في مبدأ المخالفة الصريحة للعقيدة القرآنية فتناقض أهل الأهواء والبدع نص عليه أئمة السلف كثيرا في كتبهم، ومن ذلك: قول الإمام القصاب في بيانه لإشارة القرآن عن تناقض رمز الكفر والطغيان فرعون مع ربطه- رحمه الله-

(١) تفسير الطبري: (٢/٢٥٦).

(٢) مفاتيح الغيب لمحمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (٣/٦٠٣) الناشر: دار إحياء التراث العربي– بيروت الطبعة: الثالثة- ١٤٢٠هـ.

سلوك فرعون بسلوك أهل الأهواء وأنهم جميعا يسلكون نفس المسلك: "وقوله- تعالى- إخبارا عن فرعون وملئه: ﴿ فَقَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لِبَشَرَيۡنِ مِثۡلِنَا وَقَوۡمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [المؤمنون: ٤٧] دليل على أن الله- جل جلاله - يجري نقض ضلالة الضالين على ألسنتهم فلا يشعرون بها، ولا أتباعهم ليحق كلمته على من قضى عليه الشقوة. ألا ترى أن فرعون مع ادعائه الربوبية قال مع ملئه: ﴿ أَنُؤۡمِنُ لِبَشَرَيۡنِ مِثۡلِنَا ﴾ و لم يحترز من تسمية نفسه بشرا، وقد سماها ربا لا ملؤه. قالوا: كيف تدعي الربوبية وأنت بشر مثلنا ومثل موسى وأخيه؟ وهكذا كل مبتدع يغني أتباعه عن فَلي قوله عليه، وهو ذا يناقض نفسه ولا يشعر هو ولا أتباعه كالباهلي الذي صنف كتابا في الرد على المشبهة ثم جعل رده تشبيهًا كله، و لم يشعر"[1].

* * *

(١) النكت الدالة على البيان في أنواع العلوم والأحكام (٢/٣٥٤-٣٥٥).

المبحث الرابع
أقسام المتناقضين من أهل الأهواء

يعجب المرء في الحقيقة لكثرة تناقض أهل الأهواء وخاصة وقوع ذلك ممن يشار له بالفطنة والذكاء والعقل والحكمة...إلخ، ولكن لعل العجب يزول أو يخف إذا نظرنا لأحوالهم وسيرهم التي كانوا عليها، ومن أجل الفهم الدقيق لذلك قسم شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله- المتناقضين من أهل الأهواء إلى قسمين رئيسين:

الأول: من يعلم التناقض ويقر بأحدهما إما لرغبةٍ وإما لرهبة.

وفي هؤلاء يقول ابن تيمية في وصفهم من خلال اطلاعه بنفسه على أحوالهم وسيرهم: "فإنا نعلم خلقًا من الجهمية الذين ينكرون الصفات ويقولون: هذه تجسيم، والله ليس بجسم الذين يتظاهرون بالإسلام وهم في الباطن لا يقرون بأن القرآن حق وما خالفه باطل، ولا يقرون بأن محمدًا هو رسول الله إلى جميع الخلق ولا يقرون بأنه تجب عبادة الله وحده لا شريك له ولا يقرون بالمعاد الذي أخبر الله به في كتابه، بل منهم طوائف يجعلون اليهودية والصابئة والشرك كل ذلك أديان غير محرمة ولا أهلها كفار كدين الإسلام، ثم من هؤلاء من يرجِّح الإسلام على سائر هذه الأديان ومنهم من لا يرجحه، ومنهم طوائف يعتقدون أن الأنبياء إنما هم من عقلاء بني آدم وفضلائهم وبمنزلة الملوك الذين لهم علم وعدل، وأنه إنما تجب طاعتهم في الأمور والسياسات الظاهرة التي هي نظام الدنيا فأما الأمور الدينية الباطنة النافعة في الآخرة من العلوم والأعمال فيدَّعون أنهم أعلم بذلك من الأنبياء والمرسلين أو مثلهم وأنهم مستغنون عن الرسل فيها، ومنهم طوائف يجحدون خالق العالم جحدًا محققًا ويسخرون بمن يقر بوجوده، أما العبادات التي جاءت بها الرسل والتحريمات فيسخرون بأهلها سخرية زائدة على الحد، ومنهم من يعبد الأصنام والكواكب أو يأمر بذلك،

وقد يرى ذلك أفضل وأنفع من عبادة الله وحده إلى أمور أخرى من أصناف الكفر والزندقة التي توجد في الجهمية التي هي بإجماع المسلمين من أعظم الزندقة والنفاق إذا استبطنها من يظهر الإسلام وإن أعلنها كان كافرًا معلنًا باتفاق المسلمين..."[(١)].

الثاني: من لا يعلم بوقوعه في التناقض.

وفي هؤلاء يقول ابن تيمية في وصفهم: "ولا ريب أن كثيرًا ممن ليس بزنديق ولا منافق من أهل الإيمان قد التبس عليه كثيرٌ مما يقول الجهمية وظن أن ذلك حق وأنه من تعظيم الله وتنزيهه، وغالب هؤلاء في حيرة فإنهم لا بد أن يروا منافاة الفطرة وما جاءت به الرسل لما يقوله الجهمية فيرونه منافيًا للعقل والشرع المعلومين بالاضطرار، فتارة يُعرضون عن النظر في ذلك مطلقًا فلا يحققون الإيمان بما جاءت به الرسل ويقررون أمره ولا يعتقدون ما يقوله الجهمية، وهذا ضَعفٌ في إيمانهم ومرض في قلوبهم وتارة يقولون هذا ويقولون هذا إما في حالٍ واحدة وإما في حالين ولا يشعرون بالتناقض الذي بينهما، وتارة يوافقون المؤمنين وتارة يوافقون الجهمية وتارة يوافقون هؤلاء في البعض وهؤلاء في البعض وهو موجود أيضًا في المثبتة للجسم فإن منهم من يستعمل التقية مع نفاقٍ فيوافقونهم على ما ينفونه من تفاريع ملازم الجسم مع علمه بأنه متناقض، ومنهم من يقول القولين المتناقضين ولا يشعر بالتناقض -كما تقدم-، وهؤلاء المتناقضون يقولون قول هؤلاء وقول هؤلاء لكن بعبارات متنوعة وهؤلاء خلق عظيم وطوائف كثيرة في الأمة من أصناف أهل العلم والدين لا يحصيهم إلا رب العالمين"[(٢)].

وأصحاب هذا القسم هم أيضا ليسوا على درجة واحدة في التناقض فهم أنواع فكل من كان أقرب للوحي معرفة وفهما واتباعا وعملا كان أبعد عن التناقض وأقل

(١) بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية (٥/٣٨١-٣٨٢).
(٢) السابق: (٥/٣٨٣-٣٨٤).

من غيره من حيث الوقوع فيه، وكلما كان أبعد عن الوحي معرفة وفهما واتباعا وعملا كان أقرب إلى التناقض وأكثر من غيره من حيث الوقوع فيه.

ولقد ميز أنواعهم وأماط اللثام عن درجاتهم شيخ الإسلام ابن تيمية في جوابه لمن سأله السؤال الآتي: "فإن قيل: قلت: إن أكثر أئمة النفاة من الجهمية والمعتزلة كانوا قليلي المعرفة بما جاء عن الرسول وأقوال السلف في تفسير القرآن وأصول الدين، وما بلغوه عن الرسول، ففي النفاة كثير ممن له معرفة بذلك.

قيل: هؤلاء أنواع:

الأول: نوع ليس لهم خبرة بالعقليات، بل هم يأخذون ما قاله النفاة عن الحكم والدليل، ويعتقدونها براهين قطعية، وليس لهم قوة على الاستقلال بها، بل هم في الحقيقة مقلدون فيها، وقد اعتقد أقوال السلف أولئك، فجميع ما يسمعونه من القرآن والحديث وأقوال السلف لا يحملونه على ما يخالف ذلك، بل إما أن يظنوه موافقًا لهم، وإما أن يعرضوا عنه مفوضين لمعناه.

وهذه حال مثل: أبي حاتم البستي، وأبي سعد السمان المعتزلي، ومثل: أبي ذر الهروي، وأبي بكر البيهقي، والقاضي عياض، وأبي الفرج ابن الجوزي، وأبي الحسن علي ابن المفضل المقدسي، وأمثالهم.

والثاني: من يسلك في العقليات مسلك الاجتهاد ويغلط فيها كما غلط غيره، فيشارك الجهمية في بعض أصولهم الفاسدة، مع أنه لا يكون له من الخبرة بكلام السلف والأئمة من هذا الباب ما كان لأئمة السنة، وإن كان يعرف متون الصحيحين وغيرهما. وهذه حال أبي محمد بن حزم، وأبي الوليد الباجي، والقاضي أبي بكر بن العربي، وأمثالهم، ومن هذا النوع: بشر المريسي ومحمد بن شجاع الثلجي، وأمثالهما.

ونوع ثالث: سمعوا الأحاديث، والآثار، وعظموا مذهب السلف وشاركوا

المتكلمين الجهمية في بعض أصولهم الباقية، و لم يكن لهم من الخبرة بالقرآن والحديث والآثار، ما لأئمة السنة والحديث، لا من جهة المعرفة والتمييز بين صحيحها وضعيفها، ولا من جهة الفهم لمعانيها.

وقد ظنوا صحة بعض الأصول العقلية للنفاة الجهمية، ورأوا ما بينهما من التعارض، وهذا حال أبي بكر بن فورك، والقاضي أبي يعلى، وابن عقيل وأمثالهم.

ولهذا كان هؤلاء:

تارة يختارون طريقة أهل التأويل: كما فعله ابن فورك وأمثاله في الكلام على مشكل الآثار.

وتارة يفوضون معانيها، ويقولون: تجري على ظواهرها: كما فعله القاضي أبو يعلى وأمثاله في ذلك.

وتارة يختلف اجتهادهم، فيرجحون هذا تارة وهذا تارة: كحال ابن عقيل وأمثاله.

وهؤلاء قد يدخلون في الأحاديث المشكلة ما هو كذب موضوع، ولا يعرفون أنه موضوع، وما له لفظ يدفع الإشكال، مثل: أن يكون رؤيا منام، فيظنونه كان في اليقظة ليلة المعراج.

ومن الناس[1] من له خبرة بالعقليات المأخوذة عن الجهمية وغيرهم، وقد شاركهم في بعض أصولها، ورأى ما في قولهم من مخالفة الأمور المشهورة عند أهل السنة: كمسألة القرآن والرؤية، فإنه قد اشتهر عند العامة والخاصة أن مذهب السلف وأهل السنة والحديث: أن القرآن كلام الله غير مخلوق، وأن الله يرى في الآخرة، فأراد هؤلاء أن يجمعوا بين نصر ما اشتهر عند أهل السنة والحديث، وبين موافقة الجهمية في تلك الأصول العقلية التي ظنوها صحيحة، و لم يكن لهم من الخبرة المفصلة بالقرآن ومعانيه

(١) هذا هو النوع الرابع، وإن لم يسمه شيخ الإسلام لكن السياق يدل عليه.

والحديث وأقوال الصحابة ما لأئمة السنة والحديث، فذهب مذهبًا مركبًا من هذا وهذا، وكلا الطائفتين ينسبه إلى التناقض، وهذه طريقة الأشعري وأئمة أتباعه: كالقاضي أبي بكر، وأبي إسحاق الإسفراييني، وأمثالهما.

ولهذا تجد أفضل هؤلاء- كالأشعري- يذكر مذهب أهل السنة والحديث على وجه الإجمال، و يحكيه بحسب ما يظنه لازمًا، ويقول: إنه يقول بكل ما قالوه، وإذا ذكر مقالات أهل الكلام- من المعتزلة وغيرهم- حكاها حكاية خبير بها، عالم بتفصيلها، وهؤلاء كلامهم نافع في معرفة تناقض المعتزلة وغيرهم، ومعرفة فساد أقولهم، وأما في معرفة ما جاء به الرسول، وما كان عليه الصحابة والتابعون، فمعرفتهم بذلك قاصرة"(١).

- هل وقع أهل السنة والجماعة وعلماء السلف في التناقض؟ ولماذا؟

لا بد لكي نجيب عن هذا السؤال إجابة صحيحة متوافقة مع الحق والعدل والإنصاف والواقع أن نفرق بين الأشخاص والأعيان من العلماء المنتسبين للسنة والسلف وبين المنهج الذي تقوم عليه العقيدة السنية السلفية.

أما الأشخاص فإنه من المعلوم ضرورة عند أهل السنة والجماعة أنه لا معصوم إلا النبي محمد ﷺ، ومن لوازم العصمة السلامة من التناقض في الدين، وبالتالي فإن كل من عدا النبي ﷺ من أهل الإسلام ليس بمعصوم وعلى رأسهم الخلفاء الأربعة ﷺ فكيف بمن دونهم؟! فهو من باب أولى ألا يكون معصوما فما من عالم وإلا وممكن أن يقع في التناقض وفي تقرير هذا المعنى قال ابن تيمية- رحمه الله-: "وَقَدْ ثَبَتَ أَنَّ التَّنَاقُضَ وَاقِعٌ مِنْ كُلِّ عَالِمٍ غَيْرِ النَّبِيِّينَ"(٢).

وقد وقع في التناقض بعض من علماء السلف في مسائل جزئية وممن نبه على ذلك

(١) درء تعارض العقل والنقل: (٧/٣٢-٣٧).
(٢) مجموع الفتاوى: (٢٩/٤٢).

ابن تيمية- رحمه الله- فقال: "وإنما جماع الشر تفريط في حق أو تعدٍّ إلى باطل وهو تقصير في السنة أو دخول في البدعة: كترك بعض المأمور وفعل بعض المحظور أو تكذيب بحق وتصديق بباطل؛ ولهذا عامة ما يؤتى الناس من هذين الوجهين، فالمنتسبون إلى أهل الحديث والسنة والجماعة يحصل من بعضهم- كما ذكرت- تفريط في معرفة النصوص أو فهم معناها أو القيام بما تستحقه من الحجة ودفع معارضها، فهذا عجز وتفريط في الحق، وقد يحصل منهم دخول في باطل إما في بدعة ابتدعها أهل البدع وافقوهم عليها واحتاجوا إلى إثبات لوازمها، وإما في بدعة ابتدعوها هم لظنهم أنها من تمام السنة كما أصاب الناس في مسألة كلام الله وغير ذلك من صفاته، ومن ذلك: أن أحدهم يحتج بكل ما يجده من الأدلة السمعية وإن كان ضعيف المتن والدلالة ويدع ما هو أقوى وأبين من الأدلة العقلية إما لعدم علمه بها وإما لنفوره عنها وإما لغير ذلك"[(١)].

ومع هذا يجب عدم التسرع ونسبة التناقض لأئمة السلف أو آحادهم بلا بينة بل ينبغي التثبت في المنقول عنهم وحسن الفهم لكلامهم ما وجدَ إلى ذلك سبيلا مع الأخذ في الاعتبار المنهجية العلمية المنضبطة فلا غلو ولا إجحاف قال ابن تيمية- رحمه الله- في تقريره لهذا المبدأ- في سياق الرد على من نسب للإمام أحمد بن حنبل- رحمه الله- أن التوبة من الذنب المعين لا تقبل إن لم تكن التوبة من جميع الذنوب-: "حَمْلُ كَلَامِ الإمام عَلَى مَا يُصَدِّقُ بَعْضُهُ بَعْضًا أَوْلَى مِنْ حَمْلِهِ عَلَى التَّنَاقُضِ، لَا سِيَّمَا إذَا كَانَ الْقَوْلُ الْآخَرُ مُبْتَدَعًا لَمْ يُعْرَفْ عَنْ أَحَدٍ مِنْ السَّلَفِ. وَأَحْمَدُ يَقُولُ: إيَّاكَ أَنْ تَتَكَلَّمَ فِي مَسْأَلَةٍ لَيْسَ لَك فِيهَا إمَامٌ. وَكَانَ فِي الْمِحْنَةِ يَقُولُ: كَيْفَ أَقُولُ مَا لَمْ يُقَلْ؟ وَاتِّبَاعُ أَحْمَدَ لِلسُّنَّةِ وَالْآثَارِ وَقُوَّةُ رَغْبَتِهِ فِي ذَلِكَ وَكَرَاهَتُهُ لِخِلَافِهِ مِنْ الْأُمُورِ الْمُتَوَاتِرَةِ عَنْهُ

(١) الصفدية لتقي الدين أبي العَباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية الحراني (١/٢٩٣-٢٩٤) المحقق: محمد رشاد سالم، الناشر: مكتبة ابن تيمية، مصر، الطبعة: الثانية، ١٤٠٦هـ.

يَعْرِفُهَا مَنْ يَعْرِفُ مِنْ الْخَاصَّةِ وَالْعَامَّةِ"[1].

وأما وقوع التناقض في منهج السلف العقدي فذلك من المحال؛ لأن منهجهم هو منهاج النبوة فهل وقع في منهاجه ﷺ تناقض؟ كلا.

وفي تقرير هذا الأصل قال الإمام السمعاني: "ومما يدل على أن أهل الحديث هم على الحق: أنك لو طالعت جميع كتبهم المصنفة من أولهم إلى آخرهم قديمهم وحديثهم مع اختلاف بلدانهم وزمانهم وتباعد ما بينهم في الديار وسكون كل واحد منهم قطرا من الأقطار وجدتهم في بيان الاعتقاد على وتيرة واحدة ونمط واحد يجرون فيه على طريقة لا يحيدون عنها ولا يميلون فيها، قولهم في ذلك واحد، وفعلهم واحد لا ترى بينهم اختلافا ولا تفرقا في شيء ما، وإن قل، قال الله- تعالى-: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ ﴾ [النساء: ٨٢]، وقال- تعالى-: ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا ﴾ [آل عمران: من الآية ١٠٣] .

وكان السبب في اتفاق أهل الحديث أنهم أخذوا الدين من الكتاب والسنة وطريق النقل فأورثهم الاتفاقَ والائتلافَ، وأهل البدعة أخذوا الدين من المعقولات والآراء فأورثهم الافتراقَ والاختلافَ، فإن النقل والرواية من الثقات والمتقنين قلما يختلف وإن اختلف في لفظ أو كلمة فذلك اختلاف لا يضر الدين ولا يقدح فيه، وأما دلائل العقل فقلما تتفق بل عقل كل واحد يري صاحبه غير ما يري الآخر وهذا بيِّن والحمد لله"[2].

---

(١) الفتاوى الكبرى لابن تيمية لتقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية الحراني (٥/٢٧٦). ملحوظة: ما تم نقله من الفتاوى الكبرى أظنه من كتاب التسعينية لابن تيمية فليراجع.

(٢) فصول من كتاب الانتصار لأصحاب الحديث: لأبي المظفر منصور بن محمد بن عبد الجبار بن أحمد السمعاني التميمي: (٤٥-٤٦) تحقيق: محمد بن حسين بن حسن الجيزاني، الناشر: مكتبة أضواء المنار – المدينة المنورة، الطبعة الأولى ، ١٩٩٦م.

ولذا فلا يلتفت إلى مزاعم أهل الأهواء في تناقض السلف- رضوان الله عليهم- محتجين على ذلك باختلاف السلف في مسائل الأحكام على أقوال عديدة في المسألة الواحدة وممن عرض لشبهتهم هذه وأجاب عنها: الإمام ابن بطة الحنبلي- رحمه الله- مع بيانه لسبب هذا الطعن على السلف فقال: "فإن قال قائل: قد ذكرت نهي النبي ﷺ عن الفرقة، وتحذيره أمته ذلك، وحضه إياهم على الجماعة والتمسك بالسنة، وقلت: إن ذلك هو أصل المسلمين، ودعامة الدين، وأن الفرقة الناجية هي واحدة، والفرق المذمومة نيف وسبعون فرقة، ونحن نرى أن هذه الفرقة الناجية أيضا فيها اختلاف كثير، وتباين في المذاهب، ونرى فقهاء المسلمين مختلفين، فلكل واحد منهم قول يقوله، ومذهب يذهب إليه وينصره، ويعيب من خالفه عليه، فمالك بن أنس- رحمه الله- إمام، وله أصحاب يقولون بقوله، ويعيبون من خالفهم، وكذلك الشافعي- رحمه الله، وكذلك سفيان الثوري- رحمه الله-، وطائفة من فقهاء العراق، وكذلك أحمد بن حنبل- رحمه الله- كل واحد من هؤلاء له مذهب يخالف فيه غيره. ونرى قوما من المعتزلة والرافضة، وأهل الأهواء يعيبوننا بهذا الاختلاف، ويقولون لنا: الحق واحد، فكيف يكون في وجهين مختلفين؟!

فإني أقول له في جواب هذا السؤال: أما ما تحكيه عن أهل البدع مما يعيبون به أهل التوحيد والأثبات من الاختلاف، فإني قد تدبرت كلامهم في هذا المعنى، فإذا هم ليس الاختلاف يعيبون، ولا له يقصدون، وإنما هم قوم علموا أن أهل الملة وأهل الذمة والملوك والسوقة والخاصة والعامة وأهل الدنيا كافة إلى الفقهاء يرجعون، ولأمرهم يطيعون، وبحكمهم يقضون في كل ما أشكل عليهم، وفي كل ما يتنازعون فيه، فعلى فقهاء المسلمين يعولون في رجوع الناس إلى فقهائهم، وطاعتهم لعلمائهم ثبات للدين، وإضاءة للسبيل، وظهور لسنة الرسول، وكل ذلك ففيه غيظ لأهل الأهواء، واضمحلال للبدع، فهم يوهون أمر الفقهاء، ويضعفون أصولهم، ويطعنون عليهم

بالاختلاف لتخرج الرعية عن طاعتهم، والانقياد لأحكامهم، فيفسد الدين، وتترك الصلوات والجماعات، وتبطل الزكوات والصدقات والحج والجهاد، ويستحل الربا والزنا والخمور والفجور، وما قد ظهر مما لا خفاء به على العقلاء. فأما أهل البدع يا أخي- رحمك الله- فإنهم يقولون على الله ما لا يعلمون، ويعيبون ما يأتون، ويجحدون ما يعلمون، ويبصرون القذى في عيون غيرهم، وعيونهم تطرف على الأجذال، ويتهمون أهل العدالة والأمانة في النقل، ولا يتهمون آراءهم وأهواءهم على الظن، وهم أكثر الناس اختلافا، وأشدهم تنافيا وتباينا، لا يتفق اثنان من رؤسائهم على قول، ولا يجتمع رجلان من أئمتهم على مذهب ...

فأما الاختلاف فهو ينقسم على وجهين:

أحدهما: اختلافٌ الإقرار به إيمان ورحمة وصواب، وهو الاختلاف المحمود الذي نطق به الكتاب، ومضت به السنة، ورضيت به الأمة، وذلك في الفروع والأحكام التي أصولها ترجع إلى الإجماع والائتلاف.

واختلاف هو كفر وفرقة وسخطة وعذاب يئول بأهله إلى الشتات والتضاغن والتباين والعداوة واستحلال الدم والمال، وهو اختلاف أهل الزيغ في الأصول والاعتقاد والديانة..."[1].

* * *

(١) الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية ومجانبة الفرق المذمومة لأبي عبد الله عبيد الله بن محمد بن بطة العكبري الحنبلي (الابانة الكبرى): (٢/٥٣-٥٧) المحقق: رضا بن نعسان معطي، دار النشر: دار الراية، البلد: الرياض، الطبعة: الثانية سنة الطبع: ١٤١٥هـ ، ١٩٩٤م.

المبحث الخامس
أسباب الوقوع في التناقض

١- الجهل بالكتاب والسنة وترك اتباعهما ومخالفتهما:

لا شك أن من أكبر أسباب الضلال في الدين الجهلَ بالكتاب والسنة من حيث معرفة علومهما وطريقة السلف في فهمهما، وهذا ينتج عنه ترك الاتباع لهما ومخالفتهما سواء كان الفاعل لذلك مدركا لهذا الترك والمخالفة أو غير مدرك له كما هو واقع لكثير ممن استبدل بهما المناهج العقلية التي منها الفلسفة أو الكلام أو المناهج الكشفية الصوفية، ومما لا شك فيه أن ذلك يعني لزوما تناقض من كانت هذه حاله في عقائده وأقواله وأفعاله.

وممن نبه لهذا السبب المفضي إلى التناقض شيخ الإسلام ابن تيمية في سياق بيانه لسبب تناقض الفلاسفة والمتكلمين فقال- رحمه الله-: "في هؤلاء من القصور في معرفة الكتاب والسنة وحقائق الإيمان ومعرفة السلف وكلامهم ما أوجب ظهور ما يظهر منهم من التناقض والبدع وطريق الزنادقة المنافقين وفتح باب الإلحاد والتحريف، فإنهم قليلو المعرفة بالأحاديث النبوية والآثار السلفية ومعاني الكتاب والسنة إلى الغاية، وهم في المعقولات في غاية الاضطراب"[(١)].

ومن الأمثلة على صدق هذا السبب في تناقض من تناقض: ما ذكره ابن تيمية- رحمه الله- عن اشتراط المتكلمين لوجوب النظر العقلي للإقرار بوجود الله ومعرفته[(٢)] فقال: "والمقصود- هنا-: أنّ الذين أعرضوا عن طريق الرسول في العلم والعمل وقعوا في الضلال والزلل، وأنّ أولئك لما أوجبوا النظر الذي ابتدعوه، صارت فروعه فاسدة،

(١) بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية: (٦/١٠٩-١١٠).

(٢) انظر: المواقف: عضد الدين عبد الرحمن بن أحمد الإيجي، الناشر: دار الجيل- بيروت، الطبعة الأولى، سنة: ١٩٩٧، تحقيق: د. عبد الرحمن عميرة.

إن قالوا إنّ من لم يسلكها كفر أو عصى، فقد عُرف بالاضطرار من دين الإسلام أنّ الصحابة والتابعين لهم بإحسان لم يسلكوا طريقهم، وهم خير الأمة. وإن قالوا: إنّ من ليس عنده علم ولا بصيرة بالإيمان، بل قاله تقليدًا محضًا من غير معرفة يكون مؤمنًا، فالكتاب والسنّة يُخالف ذلك. ولو أنّهم سلكوا طريقة الرسول؛ لحفظهم الله من هذا التناقض؛ فإنّ ما جاء به الرسول جاء من عند الله وما ابتدعوه جاؤوا به من عند غير الله، وقد قال- تعالى-: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ ﴾[النساء:٨٢]"[(١)].

ولأجل ذلك خلص ابن تيمية- رحمه الله- إلى القاعدة التي تقول: إن مخالفة الكتاب والسنة تساوي دوما التناقض وكلما كانت المخالفة أكثر كان التناقض أعظم، فقال- رحمه الله-:"فَمَا مِنْ طَائِفَةٍ فِيهَا نَوْعٌ يَسِيرٌ مِنْ مُخَالَفَةِ السُّنَّةِ الْمَحْضَةِ وَالْحَدِيثِ إِلَّا وَيُوجَدُ فِي كَلَامِهَا مِنَ التَّنَاقُضِ بِحَسَبِ ذَلِكَ، وَأَعْظَمُهُمْ تَنَاقُضًا أَبْعَدُهُمْ عَنِ السُّنَّةِ، كَالْفَلَاسِفَةِ ثُمَّ الْمُعْتَزِلَةِ وَالرَّافِضَةِ"[(٢)].

٢- إساءة الظن بالوحي بالقول إنه لا يستطيع الإجابة على التساؤلات العقدية.

هذا السبب له علاقة بما قبله فهو فرع عنه لكن أفردته للأهمية ولأنه كثيرا لا يصرح به؛ لأننا لا نستسيغ أن هناك من أهل الإسلام بل وممن ينتسب للعلم من يقرر هذا المعنى في كلامه سواء كان تصريحا أو تلميحا كما هو الغالب هنا، أو من خلال سلوكه في التعامل مع نصوص الكتاب والسنة.

---

(١) النبوات لتقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية الحراني الحنبلي (١/٢٨٩-٢٩٠) المحقق: عبد العزيز بن صالح الطويان الناشر: أضواء السلف، الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م.

(٢) منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية لتقي الدين أبي العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية: (٢/٢٢٩).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله- في كشفه لحقيقة هذا السبب ودوره الفاعل في وجود التناقض عند من تناقض: "وهؤلاء الذين يعارضون الكتاب والسنة بأقوالهم بنوا أمرهم على أصل فاسد، وهو: أنهم جعلوا أقوالهم التي ابتدعوها هي الأقوال المحكمة التي جعلوها أصول دينهم، وجعلوا قول الله ورسوله من المجمل الذي لا يستفاد منه علم ولا هدى، فجعلوا المتشابه من كلامهم هو المحكم، والمحكم من كلام الله ورسوله هو المتشابه، كما يجعل الجهمية من المتفلسفة والمعتزلة ونحوهم ما أحدثوه من الأقوال التي نفوا به صفات الله، ونفوا بها رؤيته في الآخرة وعلوه على خلقه، وكون القرآن كلامه ونحو ذلك، جعلوا تلك الأقوال محكمة، وجعلوا قول الله ورسوله مؤولاً عليها، أو مردوداً، أو غير ملتفت إليه ولا متلقى للهدى منه..."[(١)].

ومن الصور المعبرة لهذا السبب: زعم المتكلمين والفلاسفة أن الحديث عن الصفات الإلهية إثباتا ونفيا هو من اختصاص العقول البشرية وليس مرجعه الكتاب والسنة[(٢)].

قال ابن تيمية- رحمه الله- في هذا الشأن: "وَقَدْ سَلَكَ طَائِفَةٌ مِنْ أَئِمَّةِ النُّظَّارِ- أَهْلِ الْمَعْرِفَةِ بِالْكَلَامِ وَالْفَلْسَفَةِ- أَنْ يَجْمَعُوا بَيْنَ أَدِلَّةِ هَؤُلَاءِ وَأَدِلَّةِ هَؤُلَاءِ، وَرَأَوْا أَنَّ هَذَا غَايَةُ الْمَعْرِفَةِ وَسَمَّوْا "الْجَوَابَ" الَّذِي أَجَابُوا بِهِ الْفَلَاسِفَةَ عَنْ حُجَجِهِمْ "الْجَوَابَ الْبَاهِرَ" فَوَافَقُوا كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْ الطَّائِفَتَيْنِ فَأَخْطَئُوا وَتَنَاقَضُوا لَمَّا جَمَعُوا بَيْنَ خَطَأِ الطَّائِفَتَيْنِ، فَكَانَ قَوْلُهُمْ يَنْقُضُ بَعْضُهُ بَعْضًا؛ إذْ كَانَ خَطَأُ الطَّائِفَتَيْنِ مُتَنَاقِضًا غَايَةَ التَّنَاقُضِ، وَأَمَّا مَا أَصَابَتْ فِيهِ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْ الطَّائِفَتَيْنِ؛ فَلَوْ جَمَعُوا بَيْنَهُمَا لَكَانَ ذَلِكَ مُوَافِقًا لِلْأَدِلَّةِ السَّمْعِيَّةِ الَّتِي أَخْبَرَتْ بِهَا الرُّسُلُ وَلِلْأَدِلَّةِ الْعَقْلِيَّةِ كَالْأَدِلَّةِ الَّتِي دَلَّتْ عَلَيْهَا الرُّسُلُ لَكِنَّ هَؤُلَاءِ خَرَجُوا عَنْ مُوجَبِ الْأَدِلَّةِ السَّمْعِيَّةِ وَالْعَقْلِيَّةِ مَعَ ظَنِّهِمْ نِهَايَةَ التَّحْقِيقِ وَلَهُمْ بِذَلِكَ

(١) درء تعارض العقل والنقل: (١/٢٧٤-٢٧٥).

(٢) انظر: شرح الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار الهمداني المعتزلي: (٨٨)، والمواقف للإيجي: (١/٢٠٨).

أُسْوَةٌ بِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْ الطَّائِفَتَيْنِ؛ فَإِنَّهَا مُخَالِفَةٌ لِمُوجَبِ الأَدِلَّةِ السَّمْعِيَّةِ وَالْعَقْلِيَّةِ، وَإِنَّمَا الْحَقُّ هُوَ مَا تَصَادَقَتْ عَلَيْهِ الأَدِلَّةُ السَّمْعِيَّةُ وَالْعَقْلِيَّةُ وَهُوَ الَّذِي عَلَيْهِ سَلَفُ الأُمَّةِ وَأَئِمَّتُهَا مُتَلَقِّينَ لَهُ عَنْ الرَّسُولِ ﷺ مِنْ جِهَةِ خَبَرِهِ وَمِنْ جِهَةِ تَعْلِيمِهِ وَبَيَانِهِ لِلأَدِلَّةِ الْعَقْلِيَّةِ. مَعَ أَنَّ هَؤُلاءِ يَزْعُمُونَ أَنَّ الرُّسُلَ لَمْ يُبَيِّنُوا هَذِهِ الْمَسْأَلَةَ كَمَا ذَكَرَ ذَلِكَ الرَّازِي فِي "أَوَّلِ الْمَطَالِبِ الْعَالِيَةِ" فَزَعَمُوا أَنَّهُمْ لَمْ يُثْبِتُوا بِهَا خَبَرًا فَضْلاً عَنْ بَيَانِ الأَدِلَّةِ الْعَقْلِيَّةِ الْمُصَدِّقَةِ لِخَبَرِهِمْ"[1].

٣- مخالفة العقل السليم والاعتماد والتسليم للأصول العقلية الفاسدة.

من المشهور عن أهل الأهواء والبدع على اختلاف مقالاتهم العقدية مخالفتهم للعقل الصريح المتوافق مع النقل الصحيح إضافة لغلو الفلاسفة والمتكلمين في العقل وإنـــزاله فوق المنـــزلة التي أنـــزله الله عليها، وإعمالهم له في المجال الذي لم يجعله الله له مكانا للعمل كان كل ذلك باعثا لظهور التناقض بصورة جلية وواسعة.

ومن الأمثلة على ذلك: الارتواء من معين الفلسفات الوثنية: كالفلسفة اليونانية والاعتماد على قانونها المنطقي وأصوله في تقرير العقائد الإسلامية أو الدفاع عنها من خلاله، وهذا لم يسلم منه كبار القوم، وممن يضرب بهم المثل في الذكاء والعبقرية، قال ابن تيمية- رحمه الله-؛ شارحا هذا المعنى: "من المنتسبين إلى الإثبات بل إلى السنة والجماعة أيضا من لا يعتمد في صفات الله على أخبار الله ورسوله بل قد عدل عن هذه الطريق وعزل الله ورسوله عن هذه الولاية فلا يعتمد في هذا الباب إلا على ما ظنه من المعقولات ثم هؤلاء مضطربون في معقولاتهم أكثر من اضطراب أولئك في المنقولات تجد هؤلاء يقولون: إنا نعلم بالضرورة أمرا، والآخرون يقولون: نعلم بالنظر أو بالضرورة ما يناقضه، وهؤلاء يقولون: العقل الصريح لا يدل إلا على ما قلناه،

(١) مجموع الفتاوى: (٦/٣٠٣-٣٠٤).

والآخرون يناقضوهم في ذلك، ثم من جمع منهم بين هذه الحجج أداه الأمر إلى تكافؤ الأدلة فيبقى في الحيرة والوقف أو إلى التناقض وهو أن يقول هنا قولا ويقول هنا قولا يناقضه كما تجد من حال كثير من هؤلاء المتكلمين والمتفلسفة بل تجد أحدهم يجمع بين النقيضين أو بين رفع النقيضين، والنقيضان اللذان هما الإثبات والنفي لا يجتمعان ولا يرتفعان بل هذا يفيد صاحبه الشك والوقف فيتردد بين الاعتقادين المتناقضين- الإثبات والنفي- كما يتردد بين الإرادتين المتناقضتين، وهذا هو حال حذاق هؤلاء: كأبي المعالي وأبي حامد والشهرستاني والرازي والآمدي، وأما ابن سينا وأمثاله فأعظم تناقضا واضطرابا، والمعتزلة بين هؤلاء وهؤلاء في التناقض والاضطراب، وسبب ذلك جعل ما ليس بمعقول معقولا لاشتباه الأمر ودقة المسائل وإلا فالمعقولات الصريحة لا تتناقض والمنقولات الصحيحة عن المعصوم لا تتناقض، وقد اعتبرت هذا في عامة ما خاض الناس فيه من هذه الأمور دقيقها وجليلها فوجدت الأمر كذلك ولا حول ولا قوة إلا بالله"[(١)].

وإزاء هذا التناقض الذي قادهم إليه تلك الأصول العقلية الفاسدة التي اعتمدوها لم يبق أمامهم إلا الإقرار بفساد تلك الأصول، وفي ذلك قال ابن تيمية: "والمقصود- هنا- بيان اعتراف هؤلاء بفساد الأصول التي بنوا عليها ما خالفوه من النصوص، وبيان تناقضهم في ذلك، وأنهم يقولون إذا تكلموا في المنطق وغيره بما يناقض كلامهم هنا، ويبعد أو يمتنع في العادة أن يكون هذا لمجرد اختلاف الاجتهاد مع الفهم التام في الموضعين، بل يكون لنقص كمال الفهم والتصور، وخوفًا أن لا يكون القولان متنافيين فلا يهجم بإثبات التناقض أو لنوع من الهوى"[(٢)].

(١) الصفدية: (١/٢٩٣-٢٩٦).
(٢) درء تعارض العقل والنقل: (٤/١٨٠).

٤- أن يدخل في السمع أو العقل ما ليس فيهما.

من أسباب وقوع البعض في التناقض نسبته للوحي ما لا يصح: وذلك كالأحاديث الضعيفة أو المنكرة والموضوعة التي مع عدم ثبوتها من حيث الصناعة الحديثية تناقض العقل السليم بل هي في الحقيقة عند أهل العلم بالكتاب والسنة تناقض الكتاب الكريم وما صح من السنة النبوية.

قال ابن تيمية- رحمه الله- متحدثا عن دور هذا السبب في وقوع التناقض: "إنما يقع التناقض بين ما يدخل في السمع وليس منه، وما يدخل في العقل وليس منه"(١).

ولذا فانه يجب: "أَنْ يُعْرَفَ أَنَّ "أَدِلَّةَ الْحَقِّ لا تَتَنَاقَضُ" فَلا يَجُوزُ إذَا أَخْبَرَ اللَّهُ بِشَيْءٍ- سَوَاءٌ كَانَ الْخَبَرُ إثْبَاتًا أَوْ نَفْيًا- أَنْ يَكُونَ فِي إخْبَارِهِ مَا يُنَاقِضُ ذَلِكَ الْخَبَرَ الأَوَّلَ وَلا يَكُونُ فِيمَا يُعْقَلُ بِدُونِ الْخَبَرِ مَا يُنَاقِضُ ذَلِكَ الْخَبَرَ الْمَعْقُولَ؛ فَالأَدِلَّةُ الْمُقْتَضِيَةُ لِلْعِلْمِ لا يَجُوزُ أَنْ تَتَنَاقَضَ سَوَاءٌ كَانَ الدَّلِيلانِ سَمْعِيَّيْنِ أَوْ عَقْلِيَّيْنِ أَوْ كَانَ أَحَدُهُمَا سَمْعِيًّا وَالآخَرُ عَقْلِيًّا وَلَكِنَّ التَّنَاقُضَ قَدْ يَكُونُ فِيمَا يَظُنُّهُ بَعْضُ النَّاسِ دَلِيلًا وَلَيْسَ بِدَلِيلٍ كَمَنْ يَسْمَعُ خَبَرًا فَيَظُنُّهُ صَحِيحًا وَلا يَكُونُ كَذَلِكَ أَوْ يَفْهَمُ مِنْهُ مَا لا يَدُلُّ عَلَيْهِ أَوْ تَقُومُ عِنْدَهُ شُبْهَةٌ يَظُنُّهَا دَلِيلًا عَقْلِيًّا وَتَكُونُ بَاطِلَةً الْتَبَسَ عَلَيْهِ فِيهَا الْحَقُّ بِالْبَاطِلِ فَيُكَذِّبُ بِهَا مَا أَخْبَرَ اللَّهُ بِهِ وَرَسُولُهُ وَهَذَا مِنْ أَسْبَابِ ضَلَالِ مَنْ ضَلَّ مِنْ مُكَذِّبِي الرُّسُلِ إمَّا مُطْلَقًا كَالَّذِينَ كَذَّبُوا جَمِيعَ الرُّسُلِ: كَقَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَنَحْوِهِمْ. وأما مَنْ آمَنَ بِبَعْضٍ وَكَفَرَ بِبَعْضٍ كَمَنْ آمَنَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ بِبَعْضِ الرُّسُلِ دُونَ بَعْضٍ وَمَنْ آمَنَ مِنْ الْفَلَاسِفَةِ بِبَعْضِ مَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ دُونَ بَعْضٍ وَمِنْ أَهْلِ الْبِدَعِ مِنْ أَهْلِ الْمِلَلِ الْمُسْلِمِينَ وَالْيَهُودِ وَالنَّصَارَى مَنْ أَتَوْا مِنْ هَذَا الْوَجْهِ؛ فَإِنَّهُ قَامَتْ عِنْدَهُمْ شُبُهَاتٌ ظَنُّوا أَنَّهَا تَنْفِي مَا أَخْبَرَتْ بِهِ الرُّسُلُ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ- تَعَالَى- وَصِفَاتِهِ

(١) السابق: (٢/٣٦٤).

وَظَنُّوا أَنَّ الْوَاجِبَ حِينَئِذٍ تَقْدِيمُ مَا رَأَوْهُ عَلَى النُّصُوصِ..."[١].

ومن الأمثلة على وجود هذا السبب: ما نقله الإمام عثمان بن سعيد الدارمي عن بعض الجهمية فقال: "وَادَّعَيْتَ أَيْضًا أَنَّ قَتَادَةَ رَوَى عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: "**لَمَّا قَضَى اللَّهُ خَلْقَهُ اسْتَلْقَى وَوَضَعَ إِحْدَى رِجْلَيْهِ عَلَى الأُخْرَى**"[٢] ثُمَّ قَالَ: لا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ أَنْ يَفْعَلَهُ.

ثُمَّ فسَّره الْمُعَارِضُ بِأَسْمَجِ التَّفْسِيرِ وَأَبْعَدِهِ مِنَ الْحَقِّ، وَهُوَ مُقِرٌّ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَدْ قَالَهُ. فَزَعَمَ أَنَّه قِيلَ فِي تَفْسِيرِ هَذَا الْحَدِيثِ: "إِنَّ اللَّهَ لَمَّا خَلَقَ الْخَلْقَ اسْتَلْقَى"، فَتَفْسِيرُهُ: أَنَّهُ أَلْقَاهُمْ وبثَّهم، وَجَعَلَ بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ: "وَضَعَ إِحْدَى رِجْلَيْهِ عَلَى الْأُخْرَى"، فَيَحْتَمِلُ أَنه أَرَادَ بِالرِّجْلِ الْجَمَاعَةَ الْكَثِيرَةَ، كَقَوْلِ النَّاسِ: رِجْلٌ مِنْ جَرَادٍ، فَنَسَبْتَ تِلْكَ الرِّجْلَ إِلَى اللَّهِ كَمَا نُسِبَ رُوحُ عِيسَى إِلَى اللَّهِ بِالْإِضَافَةِ، فَأَلْقَى رِجْلًا عَلَى رِجْلٍ أَيْ جَمَاعَةً عَلَى جَمَاعَةٍ -فِي دَعْوَاهُ-.فيُقال لِهَذَا الْمُعَارِضِ: مَنْ يَتَوَجَّهُ لِنَقِيضَةِ هَذَا الْكَلَامِ مِنْ شِدَّةِ اسْتِحَالَتِهِ وَخُرُوجِهِ عَنْ جَمِيعِ الْمَعْقُولِ عِنْدَ الْعَرَبِ وَالْعَجَمِ، حَتَّى كَأَنَّهُ لَيْسَ مِنْ كَلَامِ الْإِنْسِ؟ وَمَعَ كُلِّ كَلِمَةٍ مِنْهَا شَاهِدٌ مِنْ نَفْسِهَا يَنْطِقُ لَهَا حَتَّى لَا يَحْتَاجَ نَقِيضَةً٤، وَيْلَكَ! عَمَّنْ أَخَذْتَ هَذَا التَّفْسِيرَ؟ وَمَنْ عَلَّمَكَ؟ وَعَمَّنْ رَوَيْتَ هَذَا؟ فسمِّه حَتَّى يَرْتَفِعَ عَنْكَ عَارُهُ وَيَلْزَمَ مَنْ قَالَهُ، فَأَغْرِبْ بِهَا مِنْ ضَحِكَةٍ! وَأَعْظِمْ بِهَا مِنْ سُخْرِيَةٍ! وَيْحَكَ! أَخَلَقَ اللَّهُ خَلْقًا فَسَمَّاهُمْ رِجْلًا لَهُ، ثمَّ أَلْقى رجلا على رِجْلٍ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ؟! أَحَطَبًا كَانُوا فَأَخَذَهُمْ فَأَلْقَى بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الشَّمْسِ؟ وَفِي أَيِّ لُغَاتِ الْعَرَبِ وَجَدْتَ اسْتَلْقَى فِي مَعْنَى أَلْقَى؟ فَإِنَّكَ لَمْ

(١) مجموع الفتاوى: (٦/٥١٤-٥١٥).

(٢) أخرجه أبو بكر بن أبي عاصم الشيباني في كتاب "السنة" ومعه "ظلال الجنة في تخريج السنة" للألباني، الناشر: المكتب الإسلامي، الطبعة: الأولى، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م: (١/٢٤٩)، برقم (٥٦٨)، وصرح الألباني بوضعه قائلا: "إسناده ضعيف والمتن منكر كأنه من وضع اليهود. آفته سعيد بن الحارث، ويقال: الحارث بن سعيد وهو الأصح وهو مجهول الحال".

تَجِدْهُ فِي شَيْءٍ مِنْ لُغَاتِهِمْ.

وَأَعْجَبُ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ احْتِجَاجُكَ بِجَهْلِكَ لِمَقْلُوبِ تَفْسِيرِكَ هَذَا بِقَوْلِ الشَّاعِرِ:

فَمَرَّ بِنَا رِجْلٌ مِنَ النَّاسِ وَانــزوَى إِلَيْهِمْ مِنَ الرِّجْلِ الثَّمَانِينَ أَرْجُلُ

وَيْلَكَ! إِنَّمَا قَالَ: رِجْلٌ مِنَ النَّاسِ، وَرِجْلٌ مِنَ الثَّمَانِينَ، وَلَمْ يقلْ: رِجْلٌ مِنَ اللَّهِ، كَمَا ادَّعَيْتَ أَنَّ الْخَلْقَ رِجْلٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى أَلْقَى بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ، ثُمَّ انْتَحَلْتَ أَنْتَ فِيهِ قَوْلَ الشَّاعِرِ بِمَا بَهَتَّهُ بِهِ، وَلَوْ تَكَلَّمَ بِهَذَا مَجْنُونٌ مَا زَادَهُ، فَبُؤْسًا لِقَرْيَةٍ مِثْلُكَ فقيهها والمنظور إِلَيْهِ فِيهَا"[1].

٥- الخلط أو محاولة التوفيق بين الكتاب والسنة وبين الأصول البدعية الفاسدة:

مما ابتليت به الأمة في القديم والحديث محاولة التوفيق والموائمة بين الوحي المنــزل الذي هو الحق كله والنور الكامل والهدى التام ببعض الأصول البدعية الفاسدة سواء كانت أصولا عقلية أو كشفية ذوقية ظنا منهم بإمكانية ذلك، وهذا قادهم إلى الوقوع في التناقض الصارخ سواء كان هؤلاء من المتكلمين أو ممن سموا بالفلاسفة الإسلاميين أو حتى من المعاصرين من رواد التنوير والعلمنة في العالم الإسلامي. قال شيخ الإسلام في حديثه عن ذلك: "ومن الناس من له خبرة بالعقليات المأخوذة عن الجهمية وغيرهم، وقد شاركهم في بعض أصولها، ورأى ما في قولهم من مخالفة الأمور المشهورة عند أهل السنة: كمسألة القرآن والرؤية، فإنه قد اشتهر عند العامة والخاصة أن مذهب السلف وأهل السنة والحديث: أن القرآن كلام الله غير مخلوق، وأن الله يرى في الآخرة، فأراد هؤلاء أن يجمعوا بين نص ما اشتهر عند أهل السنة والحديث، وبين موافقة الجهمية في

(١) نقض الإمام أبي سعيد عثمان بن سعيد على المريسي الجهمي العنيد فيما افترى على الله- عز وجل- من التوحيد لأبي سعيد عثمان بن سعيد بن خالد بن سعيد الدارمي السجستاني (٢/٨٠٢-٨٠٦) المحقق: رشيد بن حسن الألمعي، الناشر: مكتبة الرشد للنشر والتوزيع، الطبعة: الأولى، ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م.

تلك الأصول العقلية التي ظنها صحيحة، ولم يكن لهم من الخبرة المفصلة بالقرآن ومعانيه، والحديث وأقوال الصحابة، ما لأئمة السنة والحديث، فذهب مذهبًا مركبًا من هذا وهذا، وكلا الطائفتين ينسبه إلى التناقض. وهذه طريقة الأشعري وأئمة أتباعه: كالقاضي أبي بكر، وأبي إسحاق الإسفراييني، وأمثالهما.

ولهذا تجد أفضل هؤلاء، كالأشعري، يذكر مذهب أهل السنة والحديث على وجه الإجمال، ويحكيه بحسب ما يظنه لازماً، ويقول: إنه يقول بكل ما قالوه، وإذا ذكر مقالات أهل الكلام، من المعتزلة وغيرهم، حكاها حكاية خبير بها، عالم بتفصيلها. وهؤلاء كلامهم نافع في معرفة تناقض المعتزلة وغيرهم، ومعرفة فساد أقولهم. وأما في معرفة ما جاء به الرسول، وما كان عليه الصحابة والتابعون، فمعرفتهم بذلك قاصرة"(١).

ويحدثنا شيخ الإسلام عن هذا الخلط بصورة اكثر دقة عندما ذكر الالية التي استعملها اولئك المخلطون فأظهرت تناقضهم- في سياق حديه عن ابي الحسن الاشعري ومن وافقه-: "ومن أسباب ذلك أنهم يقولون القول المأثور عن الصحابة والسلف، الموافق للكتاب والسنة، ولصريح المعقول، ويسلكون في الرد على بعض الكفار، أو بعض أهل البدع، مسلكًا سلكته المعتزلة ونحوهم، وذلك المسلك لا يوافق أصول أهل السنة، فيحتاجون إلى التزام لوازم ذلك المسلك المعتزلي، وإلى القول بموجب نصوص الكتاب والسنة، والمعقول الموافق لذلك، فيحصل التعارض والتناقض.

وهكذا المعتزلة ردوا على كثير من الكفار رداً بطرق سلكوها، متى التزموا لوازمها عارضت حقاً آخر معلوماً بالشرع أو العقل. ومن تدبر هذه الأبواب رأى عجائب، وما ثم ما يثبت على السبر والتقسيم ويسلم عن التناقض، إلا ما جاء من عند الله. كما

(١) درء تعارض العقل والنقل: (٣٥/٧-٣٦)، وانظر: مجموع الفتاوى: (١٢٠/٧).

قال- تعالى-: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ ﴾ [النساء: ٨٢]"[1].

٦- التقليد.

يعتبر التقليد آفة عظيمة ينتج عنها سلب قدرة الإنسان على التفكير والتمييز بين الحق والباطل فهو يسلم عقله تماما لمن يقلده مما يفقده الشعور بالتكريم الذي ميز الله به الإنسان على كثير ممن خلق؛ ولذا عاب القرآن الكريم هذه الآفة وذم المقلدين وكيف أوردهم تقليدهم العواقب الوخيمة فقال في حق الكفار الذين منعهم تقليدهم لآبائهم الإيمانَ فكان أن وقعوا في الشرك: ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ۖ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الزخرف: ٢٣- ٢٥].

وهذه الآفة هي أيضا من الأسباب التي كانت وراء تناقض أهل الأهواء والبدع بل إن من المآسي العظيمة أن بعض أهل الفلسفة والكلام قد يفطن للتناقض في هذا الدليل أو الأصل العقلي الذي أخذه عن أستاذه ولكنه لا يجرأ في إعلانه والتصريح به، بل قد يبلغ به الأمر أن يبحث عن المعاذير لتبرير هذا التناقض فإن لم يجد مبررا عقليا لذلك اتهم عقله وفهمه، وهنا تبلغ المأساة منتهاها قال شيخ الإسلام مسلطا الضوء على دور التقليد في التناقض ومصورا لهذه الحالة البئيسة: "ولهذا تجدهم عند التحقيق مقلدين لأئمتهم فيما يقولون: إنه من العقليات المعلومة بصريح العقل، فتجد أتباع أرسطوطاليس يتبعونه فيما ذكره من المنطقيات والطبيعيات والإلهيات، مع أن كثيراً منهم قد يرى بعقله نقيض ما قاله أرسطو، وتجده لحسن ظنه به يتوقف في مخالفته، أو

(١) السابق: (٧/٤٦٢-٤٦٣).

ينسب النقص في الفهم إلى نفسه، مع أنه يعلمُ أهل العقل المتصفون بصريح العقل أن في المنطق من الخطأ البين ما لا ريب فيه..."[١].

ولقد ذكر ابن تيمية- رحمه الله- حالة من التقليد بغيضة عايشها وحكاها عن أناس في عصره ممن يشار إليهم بالبنان في العلم والرئاسة فيه ويتقلدون المناصب العلمية الكبرى ثم مع هذا كله هم منغمسون في التقليد غاية الانغماس، فقال في مقدمته لكتابه "تلبيس الجهمية" الذي هو رد على كتاب "أساس التقديس" لفخر الدين الرازي: "فلهذا ذكرت ما ذكره «أبو عبد الله محمد بن عمر الرازي» المعروف بابن خطيب الري، الإمام المطلق في اصطلاح المقتدين به من أهل الفلسفة والكلام، المقدَّم عندهم على من تقدمه من صنفه في الأنام، القائم عندهم بتجديد الإسلام، حتى قد يجعلونه في زمنه ثانيَ الصديق في هذا المقام، لما ردّه في ظنهم من أقاويل الفلاسفة بالحجج العظام، والمعتزلة ونحوهم، ويقولون: إن «أبا حامد» ونحوه، لم يصلوا إلى تحقيق ما بلغه هذا الإمام، فضلاً عن «أبي المعالي» ونحوه، ممن عندهم فيما يعظمونه من العلم والجدل بالوقوف على نهاية الإقدام، وإن «الرازي» أتى في ذلك من نهاية العقول والمطالب العالية بما يعجز عنه غيره من ذوي الإقدام، حتى كان فهم ما يقوله عندهم هو غاية المرام، وإن كان فضلاؤهم مع ذلك معترفين بما في كلامه من كثرة التشكيك في الحقائق، وكثرة التناقض في الآراء والطرائق، وأنه موقع لأصحابه في الحيرة والاضطراب، غير موصل إلى تحقيق الحق الذي تسكن إليه النفوس وتطمئن إليه الألباب، لكنهم لم يروا أكمل منه في هذا الباب، فكان معهم كالملك مع الحجَّاب، وكان له من العظمة والمهابة في قلوب الموافقين له والمخالفين ما قد سارت به الركبان، لما له من القدرة على تركيب الاحتجاج والاعتراض في الخطاب"[٢].

(١) درء تعارض العقل والنقل: (١/١٥١-١٥٥).
(٢) بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية: (١/١٠-١٢).

٧- مخالفة الإجماع.

الإجماع هو المصدر الثالث من مصادر تلقي العقيدة عند السلف وتكمن أهميته في أنه من الأدلة اليقينية في إثبات المسائل الدينية إضافة إلى أنه ضمانة للنصوص من تلاعب أهل الأهواء بدلالاتها فهو يحميها من حمل معانيها على ما هو باطل كادعاء العموم إن كانت دلالة النص خاصة أو العكس، أو ادعاء الإطلاق إن كان مقيدا أو العكس، أو ادعاء الإجمال وهو في غاية البيان والوضوح، أو الزعم أنه ظاهر الدلالة بينما هو نصي الدلالة، أو ادعاء النسخ وهو باق لم تنسخ أحكامه إلى غير ذلك من الدعاوى الباطلة.

قال الإمام ابن قدامة مبينا أهمية الإجماع في كشف طرق الاستدلال الخاطئة: "باب: في ترتيب الأدلة ومعرفة الترجيح يجب على المجتهد في كل مسألة أن ينظر أول شيء إلى الإجماع: فإن وجده لم يحتجْ إلى النظر في سواه. ولو خالفه كتاب أو سنة علم أن ذلك منسوخ، أو متأول؛ لكون الإجماع دليلاً قاطعًا، لا يقبل نسخًا ولا تأويلاً"(١).

فإذا ثبت ذلك فلا شك أن مخالفة الإجماع تفضي إلى التناقض وهذا ما وقع فيه أهل الأهواء والبدع ولكن ما هو أكثر غرابة وأبعد عن مسلمات الدين الحنيف والعقل الرشيد أن يدعي أهل الابتداع الإجماعَ على بدعهم وضلالتهم، وهنا تستحكم الفتنة في الدين بأولئك المفترين.

ومن الأمثلة على هذه الصورة السوداوية: ادعاء كثير من المتكلمين نفي علو الله

(١) روضة الناظر وجنة المناظر في أصول الفقه على مذهب الإمام أحمد بن حنبل لابي محمد موفق الدين عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة الجماعيلي المقدسي ثم الدمشقي الحنبلي، الشهير بابن قدامة المقدسي (٢/٣٨٩-٣٩١) الناشر: مؤسسة الريّان للطباعة والنشر والتوزيع ، الطبعة: الطبعة الثانية ١٤٢٣هـ- ٢٠٠٢م.

على خلقه مستدلين عليه باتفاق جمهور العقلاء على نفي الجهة في حقه- تعالى- كما حكى ذلك الرازي عنهم فقال: "أن جمهور العقلاء المعتبرين اتفقوا على أنه- تعالى- ليس بمتحيز، ولا مختص بشيء من الجهات، وأنه- تعالى- غير حال في العالم، ولا مباين عنه في شيء من الجهات، ولو كان فساد هذه المقدمات معلومًا بالبديهة لكان إطباق أكثر العقلاء على إنكارها ممتنعًا؛ لأن الجمع العظيم من العقلاء لا يجوز إطباقهم على إنكار الضروريات"(١).

وقد بين ابن تيمية- رحمه الله- مخالفة الرازي الصريحة لإجماع المسلمين بل وللعقلاء الحقيقين لا أدعياء العقل فقال: "فيقال له: قولك: إن جمهور العقلاء اتفقوا على أنه ليس بمتحيز ولا مختص بشيء من الجهات، وأنه- تعالى- غير حال في العالم ولا مباين عنه في شيء من الجهات، وتصورك بذلك أنه ليس على العرش، ولا فوق العالم ليس بصحيح، إذا أراد بالعقلاء المعتبرين من يستحق هذا الاسم، وذلك أن هذا القول لا يعرف عن أحد من أنبياء الله ورسله، وهم أكمل الخلق وأفضلهم عقلًا وعلمًا، فلا يوجد في كتب الله المنـــزلة عليهم، ولا في شيء من الإثارة المأثورة عنهم، لا عن خاتمهم ولا عن أنبياء بني إسرائيل ولا عن غيرهم، بل الموجود عن جميع الأنبياء ما يخالف هذا القول، وهو في ذلك إما نص وإما ظاهر، وأنت تسلم أن هذا القول لا يؤثر عن الأنبياء، وإنما يستنبط من أمور سنتكلم عليها إن شاء الله، وهذا القول أيضًا لا يؤثر عن أحد من أئمة الإسلام في القرون الفاضلة التي أثنى عليها النبي ﷺ حيث قال: «**خير القرون القرن الذي بعثت فيهم، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم**»(٢)

(١) بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية، لتقي الدين ابن تيمية (١/ ٥٩).

(٢) أصل هذا الحديث في الصحيحين: صحيح البخاري، كتاب: أصحاب النبي ﷺ، باب: فضائل أصحاب النبي ﷺ (٥/٢)، برقم (٣٦٥٠)، وهو من حديث عمران بن حصين ﷺ، ونصه: أن رسول الله ﷺ قال: "**خير أمتي قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم،- قال عمران فلا أدري: أذكر بعد قرنه قرنين أو ثلاثا**"، وعند مسلم في كتاب: فضائل الصحابة رضي الله- تعالى- عنهم، باب: فضل الصحابة=

ولا قاله أحد من أئمة المسلمين، الذي لهم لسان صدق في أصناف الأمة، الذين اتخذوهم أئمة في العلم والدين، لا من أئمة العلم والمقال، ولا من مشايخ العبادة والحال، ولا هو قول عوام المؤمنين الباقين على فطرتهم، ولا يعرف هذا القول إلا عمن هو مجروح بنقص العقل والدين، معروف بكثرة التناقض والتهافت في مقاله، ولهذا يشهدون على أنفسهم بالحيرة، ويرجعون عما يعتقدونه إلى دين العجائز، ولا يعرف فيمن قال هذا القول إلا من يشهد عليه بتوحّشه بأنه يجحد بعض العلوم الضرورية العقلية، وهذا موجود في مناظرة بعضهم، دع كون القائلين بمثل هذا القول، ليس فيهم إلا من له في الإسلام مقالة نسب لأجلها إلى ردة أو نفاق، أو جهل أو تقليد، وإن كانوا قد تابوا من ذلك، وهذا القدر معروف عند أهل النظر، واعتبر ذلك بما ذكره «أبو محمد عبد الله بن سعيد بن كلاّب» الذي هو إمام المتكلمين الصفاتية، وهو الذي سلك سبيله وائتم به «أبو الحسن الأشعري» و«أبو العباس القلانسي» ونحوهم من المتكلمة أهل الإثبات الصفاتية"[1].

٨- اتباع الهوى.

من الآفات التي تصد الإنسان عن الإقرار بالحق اتباع الهوى، وهذه خاصية من ضل من أهل الإسلام عن العقيدة النبوية السنية؛ ولذا سماهم علماء السلف بأهل الأهواء لأن كثيرا منهم يرون الحق بدليله فيلوون عنه أعناقهم وقلوبهم إلى غيره اتباعا منهم لشهوات الغي وإمعانا في الضلالة، ولقد حكى الإمام الدارمي ذلك الصنيع عن أهل الأهواء من خلال رده على من دفع الآثار النبوية الصحيحة بالدعاوى الباطلة

=ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ، (١٩٦٢/٤)، برقم (٢٥٣٣)، وهو عنده عن عبيدة السلماني، عن عبد الله ابن مسعود، قال: قال رسول الله ﷺ: "**خير أمتي القرن الذين يلوني، ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم**...".

(١) بيان تلبيس الجهمية: (٦٧/١-٦٩).

فقال- رحمه الله-:"فَإِنْ كُنْتَ تَدْفَعُ هَذِهِ الْآثَارَ بِجَهْلِكَ، فَمَا تَصْنَعُ فِي الْقُرْآنِ، وَكَيْفَ تَحْتَالُ لَهُ؟ وَهُوَ مِنْ أَوَّلِهِ إِلَى آخِرِهِ نَاقِضٌ لِمَذْهَبِكَ، وَمُكَذِّبٌ لِدَعْوَاكَ حَتَّى بَلَغَنِي عَنْكَ مِنْ غَيْرِ رِوَايَةِ الْمُعَارِضِ أَنَّكَ قُلْتَ: مَا شَيْءٌ أَنْقَضُ لِدَعْوَانَا مِنَ الْقُرْآنِ غَيْرَ أَنَّهُ لَا سَبِيلَ لِدَفْعِهِ إِلَّا مُكَابَرَة بالتأويل"(١).

ومن أبرز المتصفين بهذا الداء من أهل الأهواء الشيعة الإمامية وخاصة الاثنا عشرية منهم وفي بيان كيف قادهم اتباعهم الهوى للوقوع في التناقض قال ابن تيمية- رحمه الله-: "لَكِنَّ الْمَقْصُودَ أَنْ نُبَيِّنَ أَنَّ الرَّافِضَةَ، وَإِنْ قَالُوا حَقًّا، فَلَا يَقْدِرُونَ أَنْ يُدِلُّوا عَلَيْهِ بِدَلِيلٍ صَحِيحٍ؛ لِأَنَّهُمْ سَدُّوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ كَثِيرًا مِنْ طُرُقِ الْعِلْمِ، فَصَارُوا عَاجِزِينَ عَنْ بَيَانِ الْحَقِّ، حَتَّى أَنَّهُ لَا يُمْكِنُهُمْ تَقْرِيرُ إِيمَانِ عَلِيٍّ عَلَى الْخَوَارِجِ، وَلَا تَقْرِيرُ إِمَامَتِهِ عَلَى الْمَرْوَانِيَّةِ. وَمَنْ قَاتَلَهُ فَإِنَّ مَا يَسْتَدِلُّ بِهِ عَلَى ذَلِكَ قَدْ أَطْلَقَ جِنْسَهُ عَلَى أَنْفُسِهِمْ؛ لِأَنَّهُمْ لا يَدْرُونَ مَا يَلْزَمُ أَقْوَالَهُمُ الْبَاطِلَةَ مِنَ التَّنَاقُضِ وَالْفَسَادِ، لِقُوَّةِ جَهْلِهِمْ، وَاتِّبَاعِهِمُ الْهَوَى بِغَيْرِ عِلْمٍ"(٢).

٩- الجهل باللغة العربية على مستوى مفرداتها وأساليبها في الخطاب.

من سمات أهل الأهواء: الجهلُ باللغة العربية سواء كان هذا الجهل على مستوى المفردة من حيث إثباتُ نطق العرب بها أو من حيث دلالتها ومعناها أو من خلال السياق الذي يستعمله العرب لتلك المفردة في خطابها مما انعكس عليهم سلبا في مخالفات عقدية جمة ومن ثم ظهور التناقض بعد ذلك كأثر سلبي مشين وفي بيان ذلك قال الإمام الحافظ محمد بن على الكرجي القصَّاب في سياق رده على المعتزلة في باب القدر: "وبلية القوم إضاعة النصح لدين الله، واتخاذ كل ما احتمله ظاهر الكلام دينا، ولا يحفلون بتناقضه عليهم، ولا يعرفون مع ذلك سعة لسان العرب وتصاريف الكلام

(١) نقض الإمام أبي سعيد عثمان بن سعيد على المريسي الجهمي العنيد: (١/٣٩٢-٣٩٣).
(٢) منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية: (٦/٤٧٦).

وتعارضه، إذ في الكلام ما يحتمل وجوها مستعملة كلها، وفيه ما يحتمل وجهين لا يجوز استعمال أحدهما، وفيه ما لا يجوز استعمال ظاهره بتة. وفي التعارض ما يتوجه اختلافه، وفيه ما لا يتوجه إلا بنسخ. فما يحتمل وجوها مستعملة كلها كثير يطول الكتاب بشرحه، وليس على القوم فيه حجة، وما يحتمل وجهين لا يجوز إلا استعمال أحدهما"(١).

ولا أدل على ذلك من تشخيص هذه المشكلة في تفسيرهم للفظ (جعل) في القرآن بأنه بمعنى (خلق) كما هو وارد على لسان أهل الاعتزال خاصة ليتوصلوا بذلك لتدعيم زعمهم بأن القرآن مخلوق، وهنا يبين الإمام الكناني سر تناقض المعتزلة في هذا القول أنه راجع لمخالفته اللغة فيقول في حواره مع بشر المريسي: "إنما دخل الجهل على بشر ومن قال بقوله يا أمير المؤمنين؛ لأنهم ليسوا من العرب ولا علم لهم بلغة العرب ومعاني كلامها، فتناولوا القرآن على لغة العجم التي لا تفقه ما تقول، وإنما تتكلم بالشيء كما يجري على ألسنتها، فكل كلامهم ينقض بعضه بعضا لا ينتقدون ذلك من أنفسهم، ولا ينتقده عليهم غيرهم لكثرته.

قال عبد العزيز: وسمعت الأصمعي عبد الملك بن قريب، وقد سأله رجل أتدغم الفاء في الياء؟ فتبسم الأصمعي وقبض على يدي وكان لي صديقا، فقال لي: أما تسمع، ثم أقبل على السائل وهو يتعجب من مسألته وقوله، فقال له: "تدغم الفاء في الياء في لغة إخواننا بني الأنباء- بني ساسان- يقولون: كيصبحت، فيدغمون الفاء في الياء، أما العرب فلا تعرف هذا".

قال عبد العزيز: "فاشتد تبسم المأمون من قولة الأصمعي ووضع يده على فيه".

(١) النكت الدالة على البيان في أنواع العلوم والأحكام للإمام الحافظ محمد بن على الكرجي القصَّاب: (٣٩٣/١-٣٩٤)، تحقيق: د. علي بن غازي التويجري وآخرون، دار النشر: دار القيم ـــ دار ابن عفان، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.

قلت: "وهذا الذي يأتينا به بشر يا أمير المؤمنين من لغة أصحابنا بني الأنباء- بني ساسان"[(١)].

ومن الأمثلة على ما نحن بصدده: ما ذكره الإمام الدارمي عن المريسي في تأويله البدعي للأحاديث التي تثبت رؤية المؤمنين لربهم في الجنة فقال: "وَرَوَى الْمُعَارِضُ أَيْضًا عَنْ إِسْرَائِيلَ عَنْ ثُوَيْرِ بْنِ أَبِي فَاخِتَةَ عَنِ ابْنِ عُمَرَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: **"إِنَّ مِنْ أَدْنَى أَهْلِ الْجَنَّةِ مَنْزِلَةً، مَنْ يَنْظُرُ إِلَى نَعِيمِهِ وَجَنَّاتِهِ مَسِيرَةَ أَلْفِ سَنَةٍ، وَأَكْرَمُهُمْ عَلَى اللَّهِ ﷻ مَنْ يَنْظُرُ إِلَى وَجْهِهِ غُدْوَةً وَعَشِيَّةً"**، ثُمَّ تَلا: ﴿ **وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾** ﴾[القيامة: ٢٢][(٢)].

قَالَ الْمُعَارِضُ: فَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ النَّظَرُ إِلَى وَجْهِهِ نَظَرًا إِلَى مَا أعدَّ اللَّهُ لَهُمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَى الْجَنَّةِ الَّتِي هِيَ أَعْلَى الْجِنَانِ.

فيُقال لِهَذَا الْمُعَارِضِ: قَدْ جِئْتَ بِتَفْسِيرٍ طَمَّ عَلَى جَمِيعِ تَفَاسِيرِكَ ضَحِكَةً وَجَهَالَةً، وَلَوْ قَدْ رَزَقَكَ اللَّهُ شَيْئًا مِنْ مَعْرِفَةِ الْعَرَبِيَّةِ لَعَلِمْتَ أَنَّ هَذَا الْكَلَامَ الَّذِي رَوَيْتَهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِهَذِهِ السِّيَاقَةِ وَهَذِهِ الْأَلْفَاظِ الْوَاضِحَةِ لَا يَحْتَمِلُ تَفْسِيرًا غَيْرَ مَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَتَلَا تَصْدِيقَ ذَلِكَ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ. وَإِنَّمَا قَالَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: "إِلَى وَجْهِ اللَّهِ"، وَلَمْ يَقُلْ: إِلَى وُجُوهِ مَا أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مِنَ الْكَرَامَاتِ وَمَنْ سَمَّى مِنَ الْعَرَبِ وَالْعَجَمِ مَا أَعَدَّ

---

(١) الحيدة والاعتذار في الرد على من قال بخلق القرآن لأبي الحسن عبد العزيز بن يحيى بن مسلم بن ميمون الكناني المكي (٧١)، المحقق: علي بن محمد بن ناصر الفقهي ،الناشر: مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية،الطبعة: الثانية، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م.

(٢) أخرجه الدارقطني في كتابه "رؤية الله" (ص٢٧١)، برقم (١٧١)، تحقيق: إبراهيم محمد العلي، وأحمد فخري الرفاعي، الناشر: مكتبة المنار، الزرقاء- الأردن، عام النشر: سنة ١٤١١هـ، والإمام أحمد في مسنده في مسند عبد الله بن عمر (١٦/٥)، برقم (٥٣١٧)، وأخرجه الترمذي في سننه، في أبواب صفة الجنة، باب: ما جاء في رؤية الرب -تبارك وتعالى-، (٦٨٨/٤)، برقم (٢٥٥٣)، وضعفه الألباني في ضعيف سنن الترمذي، تعليق: زهير الشاويش، بتكليف: من مكتب التربية العربي لدول الخليج – الرياض، توزيع: المكتب الإسلامي- بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١١ هـ - ١٩٩١ م: (ص ٢٩٧)، برقم (١٦).

اللَّهُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ وَجْهًا لِلَّهِ قَبْلَكَ؟ وَفِي أَيِّ سُورَةٍ مِنَ الْقُرْآنِ وَجَدْتَ أَنَّ وَجْهَ اللَّهِ أَعْلَى جَنَّتِهِ؟ مَا لَقِيَ وَجْهِ اللَّهِ- ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ- مِنْ تَفَاسِيرِكَ؟! مَرَّةً تَجْعَلُهُ مَا أعدَّ اللَّهُ لأَهْلِ الجنَّة، وَمَرَّةً تَجْعَلُهُ أَعْلَى الْجَنَّةِ، وَمَرَّةً تَجْعَلُهُ وَجْهَ الْقِبْلَةِ، وَمَرَّةً تُشَبِّهُهُ بِوَجْهِ الثَّوْبِ وَوَجْهِ الْحَائِطِ، وَاللَّهُ سَائِلُكَ عمَّا تَتَلَاعَبُ بِوَجْهِهِ- ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ- فَإِنْ كَانَ كَمَا ادَّعَيْتَ أَنَّ أَكْرَمَهُمْ عَلَى اللَّهِ مَنْ يَنْظُرُ إِلَى وَجْهِ مَا أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مِنَ الْكَرَامَةِ الَّتِي يَتَوَقَّعُونَهَا مِنَ اللَّهِ، أَفَلَيْسَ قَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي حَدِيثِكَ أَيْضًا: "إِنَّ أَدْنَاهُمْ مَنـــزلَةً يَنْظُرُونَ إِلَى مَا أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مِنَ جَنَّاتِهِ وَنَعِيمِهِ وَكَرَامَاتِهِ مَسِيرَةَ أَلْفِ سَنَةٍ، وَإِنَّ الْأَدْنَيْنَ مِنْهُمْ يَتَوَقَّعُونَ مِنْ كَرَامَاتِ اللَّهِ مَا يَتَوَقَّعُ أَكْرَمُهُمْ، وَيَنْظُرُونَ إِلَى أَعْلَى الْجَنَّةِ كَمَا يَنْظُرُ أَكْرَمُهُمْ؟" مَا مَوْضِعُ تَمْيِيزِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الْأَدْنَى بِالنَّظَرِ إِلَى مُلْكِهِ وَنَعِيمِهِ، وَالْأَعْلَى إِلَى وَجْهِهِ بُكْرَةً وَعَشِيَّةً؛ إِذْ كُلُّهُمْ عَنِ النَّظَرِ إِلَى مَا أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ فِيهَا غَيْرُ مَحْجُوبِينَ، وَلَا عَنِ التَّوَقُّعِ مَمْنُوعِينَ حَتَّى تَلَا رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْأَكْرَمِينَ مِنْهُمْ مَا لم يتل فِي الأدنيين مِنْهُم تَثْبِيتًا لِوَجْهِهِ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ، وَتَكْذِيبًا لِدَعْوَاكَ، فَقَالَ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝٢٣﴾ [القيامة: ٢٢– ٢٣] وَلَمْ يَقُلْ: إِلَى كَرَامَاتِهَا نَاظِرَةٌ، فَسُبْحَانَ اللَّهِ! مَا أَوْحَشَهَا مِنْ تَأْوِيلٍ، وَأَقْبَحَهَا مِنْ تَفْسِيرٍ، وَأَشَدَّهَا اسْتِحَالَةً فِي جَمِيعِ لُغَاتِ الْعَالَمِينَ، فَسُبْحَانَ مَنْ لَمْ يَرْزُقْكَ مِنَ الْفَهْمِ إِلَّا مَا تَرَى، لَوْ تكلم بِهَذَا صبيان الْكتاب لَا ستضحك النَّاسُ مِنْهُمْ فَكَيْفَ رَجُلٌ يَعُدُّ نَفْسَهُ مِنْ عِدَادِ عُلَمَاءِ بِلَادِهِ؟"[1].

١٠– اتباع التشابه:

لطالما كان التشابه أو ما يسمى بالمتشابهات من أسباب الضلال في باب العقائد بل إنه كثيرا ما قاد إلى تناقض ممن اشتبهت عليه الأمور فلم يعد قادرا على تمييز الحق من

(١) نقض الإمام أبي سعيد عثمان بن سعيد على المريسي الجهمي العنيد: (٢/٨١٠– ٨١٣).

الباطل وذلك لدقة هذه المسائل العقدية فهي بحاجة إلى مصدر معصوم من الخطأ والضلال، وهذا لا يتوفر إلا للكتاب والسنة، فتعاطوا تلك الأمور بعقولهم فوقعوا في البدعة والتناقض قال ابن تيمية – رحمه الله– مشيرا لدور هذا السبب بقوله: "فإذا لم يوجد في الأحاديث الصحيحة ما يعلم نقيضه بالأدلة الخفية: كالإجماع ونحوه، فألا يكون فيها ما يعلم نقيضه بالعقل الصريح الظاهر أولى وأحرى، ولكن عامة موارد التعارض هي من الأمور الخفية المشتبهة التي يحار فيها كثير من العقلاء: كمسائل أسماء الله وصفاته وأفعاله، وما بعد الموت من الثواب والعقاب والجنة والنار والعرش والكرسي، وعامة ذلك من أنباء الغيب التي تقصر عقول أكثر العقلاء عن تحقيق معرفتها بمجرد رأيهم، ولهذا كان عامة الخائضين فيها بمجرد رأيهم إما متنازعين مختلفين، وإما حيارى متهوكين، وغالبهم يرى أن إمامه أحذق في ذلك منه"[(١)].

ولقد جعل شيخ الإسلام من أسباب تناقض كبار الفلاسفة والمتكلمين: كابن سينا وأبي المعالي وأبي حامد والشهرستاني والرازي والآمدي: الأمور المتشابهة فقال: "وسبب ذلك: جعل ما ليس بمعقول معقولا لاشتباه الأمر ودقة المسائل وإلا فالمعقولات الصريحة لا تتناقض، والمنقولات الصحيحة عن المعصوم لا تتناقض، وقد اعتبرت هذا في عامة ما خاض الناس فيه من هذه الأمور دقيقها وجليلها فوجدت الأمر كذلك ولا حول ولا قوة إلا بالله، وقد يشكل الشيء ويشتبه أمره في الابتداء فإذا حصل الاستعانة بالله واستهداؤه ودعاؤه والافتقار إليه أو سلوك الطريق الذي أمر بسلوكها هدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم"[(٢)].

١١– مخالفة الفطرة السليمة:

دائما ما تفضي مخالفة الفطرة السليمة التي خلق الله الخلق عليها إلى تناقض ذلك

(١) درء تعارض العقل والنقل: (١/١٥١).
(٢) الصفدية: (١/٢٩٣-٢٩٦).

المخالف لا محالة بل إن مخالفة الفطرة السوية السليمة غالبا ما تكون صورة التناقض فيها أكثر وضوحا وجلاء لعامة البشر من مخالفة نص شرعي قال ابن تيمية في بيان أن من أسباب ضلال الفلاسفة في العقائد مخالفتَهم الفطر السليمة: كزعمهم أن المخلوق الحادث الموجود بعد العدم قديم أزلي مساو لله في ذلك الوصف: "وَهَذَا وَغَيْرُهُ مِمَّا يُبَيِّنُ أَنَّ الْقَوْمَ لَمَّا غَيَّرُوا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ عَلَيْهَا عِبَادَهُ، فَخَرَجُوا عَنْ صَرِيحِ الْمَعْقُولِ وَصَحِيحِ الْمَنْقُولِ، وَدَخَلُوا فِي هَذَا الْإِلْحَادِ الَّذِي هُوَ مِنْ أَعْظَمِ جَوَامِعِ الْكُفْرِ وَالْعِنَادِ صَارَ فِي أَقْوَالِهِمْ مِنَ التَّنَاقُضِ وَالْفَسَادِ مَا لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا رَبُّ الْعِبَادِ مَعَ دَعْوَاهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْبَرَاهِينِ الْعَقْلِيَّةِ وَالْمَعَارِفِ الْحِكَمِيَّةِ، وَأَنَّ الْعُلُومَ الْحَقِيقِيَّةَ فِيمَا يَقُولُونَهُ لَا فِيمَا جَاءَتْ بِهِ رُسُلُ اللَّهِ الَّذِينَ هُمْ أَفْضَلُ الْخَلِيقَةِ وَأَعْلَمُهُمْ بِالْحَقِيقَةِ"[1].

* * *

(١) منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية: (١/٢٩٥-٢٩٦).

المبحث السادس
صور التناقض

عند التأمل في صور التناقض عند المخالف نجدها ترجع في مجملها إلى الصور التالية:

أولا: إثبات الشيء ونفي عينه معا.

ومن الأمثلة على هذه الصورة ما يلي:

١- يرى مرجئة الفقهاء أن مرتكب الكبائر مؤمن كامل الإيمان لإتيانه بأركان الإيمان- الذي هو لديهم التصديق القلبي وقول اللسان- ولكنهم في نفس الوقت يقولون: إنه ملام على ترك الواجبات وفعل الكبائر؛ ولذا يصفونه بالضلال والفسق، وهذا تناقض صريح فإن لفظ الإيمان في اصطلاح الوحي يقصد به: من أتى بالواجبات وانتهى عن الكبائر والموبقات، وممن نبه على تناقضهم هذا الإمام إبراهيم النخعي فقال: "ما أعلم قوما أحمق في رأيهم من هذه المرجئة؛ لأنهم يقولون: مؤمن ضال ومؤمن فاسق"(١).

٢- لقد أبطل الإمامية الاثنا عشرية (الرافضة) الاستدلال بخبر الآحاد في الاعتقاد ولكنهم في نفس الوقت استدلوا به في أصل دينهم وركنه الركين ألا وهو الإمامة، وهذا تناقض صارخ تحدث عنه الإمام العمراني بقوله: "لو كان هناك نص من النبي ﷺ على إمام بعينه بأن يقول: هذا خليفتي والإمام من بعدي فاسمعوا له وأطيعوا لم يخل: إما أن يكون هذا القول من النبي ﷺ بمحضر من الصحابة ممن يقع العلم بخبرهم أو كان ذلك منه بمحضر الواحد والاثنين

(١) السنة للإمام عبد الله بن أحمد بن حنبل الشيباني: (٣٤١/١) تحقيق: د. محمد سعيد سالم القحطاني، الناشر: دار ابن القيم– الدمام، الطبعة الأولى ، ١٤٠٦.

والعدد الذين لا يقع العلم بخبرهم، فلو كان قد قال ذلك بمحضر جماعة يقع العلم بخبرهم؛ لنقل ذلك نقل مثله ولشاع وذاع كما نقل أعداد الركعات وفرض الحج والصيام والزكاة التي لا خلاف بين الأمة في وجوبها؛ لأن الإمامة من الفروض العامة اللازمة للجميع ولتوفرت الدواعي في كل عصر على نقل ذلك إلى يومنا هذا، وعدم ذلك يضطر إلى عدم النص منه، وإن كان قال ذلك بمحضر ممن لا يقع العلم بخبرهم فعند الروافض أن أخبار الآحاد لا توجب العمل في العبادات فكيف توجب العمل في الإمامة؟! ولأنه لو كان كذلك لما وسع عليا ﷺ السكوت عن الاحتجاج به، ولما وسع بني هاشم وبني عبد المطلب الإغضاء على ذلك وترك نصرة علي، وفي عدم ذلك منهم ومنه ما يدل على عدم النص"[1].

٣- ومن الأمثلة أيضا: ما حكاه ابن تيمية عن موقف المخالفين لأهل السنة من الفلاسفة ومن وافقهم على ما يستحقه ﷺ من الوصف اللائق به، فمرة يجعلونه سببا في افتراق الخلق وافتتانهم واقتتالهم وفساد دينهم ودنياهم وأنه لم يأت بالحق والعدل، ومرة يجعلونه أكمل الخلق وأعدلهم وسبب هدايتهم، وهذا غاية التناقض -وذلك في سياقه الحديث عن موقفهم من نصوص الوحي- فقال: "ثم المعتزلي- والمتفلسف الذي يوافقه- يقول: إن العقل يمنع إثبات الصفات وإمكان الرؤية.

يقول المتفلسف الدهري: إنه يمنع إثبات معاد الأبدان وإثبات الأكل والشرب في الآخرة، ونحو ذلك، فهؤلاء مع تناقضهم لا يجعلون الرسول نفسه نصب في خطابه دليلاً يفرق به بين الحق والباطل، والهدى والضلال، بل يجعلون الفارق هو ما يختلف

(١) الانتصار ليحيى العمراني: (٣ / ٨٣٠ – ٨٣١).

باختلاف الناس من أذواقهم وعقولهم.

ومعلوم أن هذا نسبة للرسول إلى التلبيس وعدم البيان، بل إلى كتمان الحق وإضلال الخلق، بل إلى التكلم بكلام لا يعرف حقه من باطله، ولهذا كان حقيقة أمرهم الإعراض عن الكتاب والرسول، فلا يستفيدون من كتاب الله وسنة رسوله شيئًا من معرفة صفات الله- تعالى-، بل الرسول معزول عندهم عن الإخبار بصفات الله- تعالى- نفيًا وإثباتًا، وإنما ولايته عندهم في العمليات- أو بعضها- مع أنهم متفقون على أن مقصوده العدل بين الناس وإصلاح دنياهم.

ثم يقولون مع ذلك: إنه أخبرهم بكلام عن الله وعن اليوم الآخر: صار ذلك الكلام سببًا للشر بينهم والفتن والعداوة والبغضاء، مع ما فيه عندهم من فساد العقل والدين، فحقيقة أمرهم أنه أفسد دينهم ودنياهم.

وهذا مناقض لقولهم: إنه أعقل الخلق وأكملهم، أو من أعقلهم وأكملهم، وأنه قصد العدل ومصلحة دنياهم، فهم مع قولهم المتضمن للكفر والإلحاد، يقولون قولاً مختلفا، يؤفك عنه من أفك، متناقض غاية التناقض، فاسد غاية الفساد"[(١)].

ثانيا: إبطال قول الخصم والقول به في نفس الوقت.

ومن الأمثلة على هذه الصورة ما يلي:

١- لقد ذم الأشاعرة قول المعتزلة بخلق القرآن وردوا عليهم وأبطلوا قول المعتزلة ولكنهم قالوا به حقيقة شعروا بذلك أو لم يشعروا، أما كيف تم ذلك فيجليه لنا الإمام السجزي- رحمه الله- فيقول- في الفصل الرابع: في (إقامة البرهان على أنهم مخالفون لمقتضى العقل بأقاويل متناقضة مظهرون لخلاف ما يعتقدونه)-: "وأما مخالفتهم لمقتضى العقل، ونص الكتاب، قولهم: إنّ الله-

(١) درء تعارض العقل والنقل: (٥/٢٤٠-٢٤١)

سبحانه- أفهم موسى عليه السلام كلامه بلطيفة أدرك بها موسى أنه كلامه بلا واسطة والكلام قديم غير مخلوق. وقال أبو بكر بن الباقلاني: إنّ الله متكلم في الأزل، ولا يجوز أن يقال: إنه مكلِّم في الأزل.

وفي هذا الفصل تناقض؛ لأنّ الإفهام من صفات الفعل، وأفعال الله- تعالى- محدثة في غيره[1]، فالكلام على هذا الأصل مخلوق محدث، وإذا لم يجز أن يقال: إنه مكلِّم في الأزل كان التكليم فعلاً لا غير، فيكون الكلام مخلوقاً.

وأحد ما استدل به العلماء على نفي الخلق عن كلام الله- سبحانه- قوله- عزو جل-: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ١٦٤﴾ [النساء: من الآية ١٦٤] فقالوا: أتى بالمصدر ليعلم أنه كلام من مكلِّم إلى مكلَّم. وقال نوح بن أبي مريم في تكليماً: (يعني: المشافهة بين اثنين) وإن لم يكن هناك مشافهة، فالله- تعالى- قال لموسى عليه السلام: ﴿فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ ١٣﴾ [طه: من الآية ١٣]، والاستماع بين الخلق لا يقع إلا إلى صوت، وهو غير الإفهام؛ لأنّ الفهم يتأخر عن السمع"[2].

٢- تأول أهل الكلام صفة اليد في حق الله- تعالى- بأنها القوة والقدرة أو النعمة ووصفوا من أثبتها لله حقيقة على الوجه اللائق به- تعالى- مشبها مجسما، ولكنهم وقعوا حقيقة وبصدق فيما وصفوا به أهل السنة بهتانا دون أن يشعروا بذلك فوقعوا فيما عابوا به المخالف لهم وفي كشف ذلك قال الإمام القصاب: "وليت شعري حيث ذهبوا باليد إلى القوة والنعمة فرارا من التشبيه بالمخلوقين هل يسلموا مما فروا منه، أو للمخلوقين قوة ونعمة، فإذا هم لم يخلصوا على أكثر من أن أجازوا تطبيقا وردوا غيره، وكلاهما- الجائز عندهم

(١) أي عند الكلابية والأشعرية، يريد المؤلف - رحمه الله- إلزامهم بأن قولهم: "إن الله أفهم موسى عليه السلام كلامه بلطيفة.." مؤد إلى القول بخلق القرآن.

(٢) رسالة السجزي إلى أهل زبيد في الرد على من أنكر الحرف والصوت: (١٦٣-١٦٥).

والمردود- من صفات الخلق، وهذه غفلة متجاوزة أو عناد قبيح.

وكما قالوا في ضحك الله- تبارك وتعالى-: لمعانُ نوره لا الضحك الذي يشاركه فيه المخلوقين.

وقالوا: هو كقول العرب: ضحك المزن، إذا بدأ فيه لمعان البرق، وضحكت الكرسفة وهل ضحك الكرسفة والمزن غير مخلوقين حيث حملوا ضحكه على ضحكهما؟ أو لا يرون أن للشمس والقمر والكواكب نوراً ولمعاناً وهي مخلوقة كلها، أفيجوز نفي النور عنه- تبارك وتعالى- وهو يقول: ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ [النور: من الآية ٣٥]؛ لأن شاركه فيه ما ذكرناه؟ وهلا أنكروا الضحك بواحده؛ إذ الضحك غير ذلك كله أيضا، قال الله- تبارك وتعالى-: ﴿ وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ ﴾ [هود: من الآية ٧١]، وما الذي جعل الوفاق الواقع من ولد آدم له من صفاته هو المنكر، والوفاق في كل هذه الأشياء محتملا جائزا عندهم؟ هل في ذلك إلا مضاهاة القرآن بالحدث؛ إذ قد نطق بالسمع والبصر واليد والحب والغضب والمكر والسخط وأشباه ذلك، وهلا نفوا الكيد والقوة وأشباهها عنه؛ إذ لولد آدم أيضا كيد وقوة، وقد نطق القرآن بهما، قال الله- تبارك وتعالى-: ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾ [فصلت: من الآية ١٥] .

وقال: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴾ [هود: من الآية ٦٦]، وقال: ﴿ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا (١٥) وَأَكِيدُ كَيْدًا (١٦) ﴾ [الطارق: ١٥- ١٦]، وقال في النساء: ﴿ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾ [يوسف: من الآية ٢٨]، وفي الشيطان: ﴿ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾ [النساء: من الآية ٧٦]، مع ما يطول الكتاب من مثل هذا.

فما بال بعض هذه الأشياء يكون تشبيها وبعضها غير تشبيه، وفاق بالاسم وليس المفرق بينهما أكثر من أن ما فيه جل وعز غير مخلوق، وما في الآدميين وسائر الخلق

مخلوق"[1].

ثالثا: أن يقول القول ثم يرجع عنه.

الرجوع- هنا- يراد به: التخلي عن المقولة التي قالها سابقا أو يتراجع عنها من خلال سلوكه العملي وممن اشتهر ذلك عنه من متأخري المتكلمين فخر الدين الرازي، وأشار إلى هذا المعنى شيخ الإسلام ابن تيمية عند حديثه عن الرازي فقال: "وهو كثير التناقض يقول القول ثم يرجع عنه ويقول في الآخر ما يناقضه كما يوجد هذا في عامة كتبه"[2].

ومن الأمثلة على هذه الصورة ما يلي:

١- نقد الإمام الدارمي المريسي في تقريره وجوب عدم قياس الله بالخلق لكنه تراجع عن ذلك فقاس الله بخلقه في كل موطن بل قاسه بأقبح صورة قال الإمام الدارمي- رحمه الله-:" أوَ لم تَقُلْ فِي صَدْرِ كِتَابِكَ هَذَا أَنَّ اللَّهَ لَا يُقاس بالنَّاسِ، وَلَا يَحِلُّ لِلرَّجُلِ أَنْ يَتَوَهَّمَ فِي صِفَاتِهِ مَا يَعْقِلُهُ مِنْ نَفْسِهِ؟ وَأَنْتَ تَقِيسُهُ فِي ضَحِكِهِ بِالزَّرْعِ وَتَتَوَهَّمُ فِيهِ مَا يُتَوَهَّمُ بِالزَّرْعِ. وادَّعيت أَيْضًا فِي صَدْرِ كِتَابِكَ هَذَا أَنَّهُ لَا يَجُوزُ فِي صِفَاتِ اللَّهِ تَعَالَى اجْتِهَادُ الرَّأْيِ، وَأَنْتَ تَجْتَهِدُ فِيهَا أَقْبَحَ الرَّأْيِ، حَتَّى مِنْ قَبَاحَةِ اجْتِهَادِكَ تَتَخَطَّى بِهِ الْحَقَّ إِلَى الْبَاطِلِ، وَالصَّوَاب إِلَى الْخَطَأ، أوَ لم تَذْكُرْ فِي كِتَابِكَ أَنَّهُ لَا يحْتَمل فِي التوحيد إِلَّا الصَّوَابُ فَقَطْ؟ فَكَيْفَ تَخُوضُ فِيهِ بِمَا لَا تَدْرِي؟ أَمُصِيبٌ أَنْتَ أَمْ مُخْطِئٌ؟ لِأَنَّ أَكْثَرَ مَا نرَاك تفسر التوحيد بالظَّنِّ، وَالظَّنُّ يُخْطِئُ وَيُصِيبُ، وَهُوَ قَوْلُكَ: يَحْتَمِلُ فِي تَفْسِيرِهِ كَذَا، وَيَحْتَمِلُ كَذَا تَفْسِيرًا وَيَحْتَمِلُ فِي صِفَاتِهِ كَذَا، وَيَحْتَمِلُ خِلَافَ ذَلِكَ، وَيَحْتَمِلُ فِي كَلَامِهِ كَذَا وَكَذَا. وَالِاحْتِمَالُ ظَنٌّ عِنْدَ

(١) النكت للقصاب: (١/٤١٩-٤٢٢).

(٢) بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية: (٨/٥٢٩-٥٣٠).

النَّاسِ غَيْرُ يَقِينٍ، وَرَأْيٌ غَيْرُ مُبِينٍ، حَتَّى تَدَّعِيَ لِلَّهِ فِي صِفَةٍ مِنْ صِفَاتِهِ أَلْوَانًا كَثِيرَةً وَوُجُوهًا كَثِيرَةً أَنَّهُ يَحْتَمِلُهَا لَا تَقِفُ عَلَى الصَّوَابِ مِنْ ذَلِكَ فَتَخْتَارَهُ، فَكَيْفَ تَنْدُبُ النَّاسَ إِلَى صَوَابِ التَّوْحِيدِ، وَأَنت دائب تَجْهَل صِفَاته وَأَنْتَ تَقِيسُهَا بِمَا لَيْسَ عِنْدَكَ بِيَقِينٍ؟ ولكنَّا نَظُنُّكَ تَقُولُ الشَّيْءَ فَتَنْسَاهُ، حَتَّى يَدْخُلَ عَلَيْكَ فِيهِ مَا يَأْخُذُ بِحَلْقِكَ أَوْ يَكْظِمُكَ.

وَالْعَجَبُ مِنْ رَجُلٍ يَدَّعِي عَلَى قَوْمٍ زُورًا وَكَذِبًا أَنَّهُمْ يُشَبِّهُونَ اللَّهَ بَآدَمَ فِي صُورَتِهِ، فَتَدَّعِي عَلَيْهِمْ بِذَلِكَ كُفْرًا وَهُوَ يُشَبِّهُهُ فِي يَدِهِ بِأَقْطَعَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ، وَفِي بَصَرِهِ بِأَعْمَى، وَفِي سَمْعِهِ بِأَصَمَّ، وَفِي وَجْهِهِ بِوَجْهِ الْقَبْلَة وَوجه الْأَعْمَال الصَّالِحَةِ، وَفِي كَلَامِهِ بِأَبْكَمَ، حَتَّى تَتَوَهَّمَ فِي كَلَامِهِ أَنَّهُ كَكَلَامِ الْجِبَالِ وَالشَّجَرِ، وَفِي ضَحِكِهِ بِالزَّرْعِ الْأَخْضَرِ، فَكَيْفَ تُجِيزُ لِنَفْسِكَ أَيُّهَا الْمُعَارِضُ مِنْ ذَلِكَ مَا تَجْحَدُهُ عَلَى غَيْرِكَ؟ لَقَدِ احْتَظَرْتَ وَاسِعًا، وَكلما احْتَجَجْتَ لِمَذْهَبِكَ مِنْ بَاطِلٍ احْتُمِلَ، وَمَا احتجَّ عَلَيْكَ غَيْرُكَ فِيهِ مِنْ حَقٍّ بَطُلَ؟ رُوَيْدَكَ بِالْقَضَاءِ فَلَا تَعْجَلْ، فَتَزِلَّ قَدَمُكَ، وَتَسْتَجْهِلَ، وَتَفْتَضِحَ بِهَا عِنْدَ مَنْ عَقِلَ"[(١)].

٢- يعتقد كثير من المتكلمين بوجوب النظر العقلي في وجود الله ومعرفة ربوبيته وما يجب له ومن لم يسلك ذلك الطريق بطل إيمانه بل قال كثير منهم بكفره لكنهم عندما سئلوا عن حكم عامة الأمة وجمهورها العظيم الذي لم يؤمن قط حسب الطريقة الكلامية هل يكفرون بسبب عدم قيامهم بالنظر الواجب؟ قال أكثرهم بعدم كفرهم وبذلك يكونوا قد تخلوا عن شرطهم فظهر بذلك تناقضهم[(٢)]، وممن أشار إلى تناقضهم في هذه المسألة الإمام أبو المظفر السمعاني

(١) نقض الإمام أبي سعيد عثمان بن سعيد على المريسي الجهمي العنيد فيما افترى على الله ﷻ من التوحيد: (٢/٧٩٧-٨٠٠).

(٢) انظر: المواقف: (١/١٦٨).

فقال: "ومن قبيح ما يلزمهم في اعتقادهم أنا إذا بنينا الحق على ما قالوا وأوجبنا طلب الدين بالطريق الذي ذكروه وجب من ذلك تكفير العوام بأجمعهم؛ لأنهم لا يعرفون إلا الاتباع المجرد ولو عرض عليهم طريق المتكلمين في معرفة الله- تعال-ى ما فهمه أكثرهم فضلا من أن يصير فيه صاحب استدلال وحجاج ونظر، وإنما غاية توحيدهم التزام ما وجدوا عليه سلفهم وأئمتهم في عقائد الدين والعض عليها بالنواجذ والمواظبة على وظائف العبادات وملازمة الأذكار بقلوب سليمة طاهرة عن الشبهات والشكوك تراهم لا يحيدون عما اعتقدوه وإن قطعوا إربا إربا فهنيئا لهم هذا اليقين وطوبى لهم هذه السلامة، فإذا كفروا هؤلاء الناس وهم السواد الأعظم وجمهور الأمة فما هذا إلا طي بساط الإسلام وهدم منار الدين وأركان الشريعة وأعلام الإسلام وإلحاق هذه الدار- أعني: دار الإسلام بدار الكفر- وجعل أهليهما بمنـــزلة واحدة

ومتى يوجد في الألوف من المسلمين على الشرط الذي يراعونه لتصحيح معرفة الله- تعالى- أو لا يجد مسلم ألم هذه المقالة القبيحة الشنيعة في قلبه بل لو تقطع حسرات من عظيم ما اخترعوه في الدين وموهوه على الناس كان جديرا بذلك .

وإن قالوا: إنا لا نكفر العوام فقد ناقضوا أصولهم حين أثبتوا حقيقة المعرفة والإيمان بغير طريقها على أصولهم، وأظن أن من قال عنهم ذلك فإنما هو سلوك طريق التقية ورد تشنيع الناس عليهم وإلا فاعتقادهم وطريقتهم في أصولهم ما ذكرنا، والله يكفي أهل السنة والجماعة شرهم ويرد كيدهم في نحرهم ويلحق بهم عاقبة مكرهم بقدرته وعظيم سطوته"[1].

(١) الانتصار لأصحاب الحديث، لأبي المظفر منصور بن محمد السمعاني، تحقيق: محمد بن حـــسين بـــن حسن الجيزاني الناشر: مكتبة أضواء المنار- المدينة المنورة الطبعة الأولى ، ١٩٩٦.

رابعا: إثبات القول وعدم التزام لوازمه أو مع إثبات ما ينافيها.

هذه الصورة من أكثر الصور شيوعا لتناقض المخالفين على اختلاف ألوانهم وممن نوه على ذلك الإمام ابن تيمية في غير موطن من كتبه فمن ذلك قوله- رحمه الله-: "وعامة هؤلاء يقولون الأقوال المتناقضة، ويقولون القول ولا يلتزمون لوازمه"[(١)].

وشرحه بصورة أوضح في حق الأشاعرة خاصة فقال: "وذلك أنكم مقصرون في مناظرة النفاة لما أثبتموه عقلاً وسمعًا، فإنكم في كثير من مناظراتكم لهم تصيرون إلى المكابرة ودعوى ما يعلمون هم نقيضها، كما تفعلونه في مسألة الرؤية والكلام وإثبات الصفات بدون إثبات لوازم ذلك؛ إذ أنتم كثيراً ما تثبتون الشيء بدون لوازمه، أو مع وجود منافيه، ومن هنا تسلط عليكم القرامطة والفلاسفة والمعتزلة، ونحوهم من النفاة، وكلام أئمتكم معهم كلام قاصر، يظهر قصوره لمن كان خبيرًا بالعقليات.

وسبب ذلك: تقصيرهم في مناظرتهم، حيث سلموا لهم مقدمات عقلية ظنوها صحيحة وهي فاسدة، فاحتاجوا إلى إثبات لوازمها، فاضطروا إما إلى موافقتهم على الباطل، وإما على التناقض الذي يظهر به فساد قولهم، وإما إلى العجز الذي يظهر به قصورهم وانقطاعهم، ثم أخذوا يناظرون أهل الإثبات للعلو ونحوه، بما به ناظرهم أولئك، ويتسلطون على العاجز من مناظرتهم مع المثبتين، كما تسلط عليهم أولئك، فصاروا بمنـــزلة من قصروا في جهاد من يليهم من الكفار حتى غلبوهم وهزموهم، فقاموا يقاتلون من يليهم من المسلمين كما قاتلهم أولئك الكفار حتى ظهر الباطل والكفر والضلال، بتفريطهم أولا في جهاد من يليهم من الكفار، وعداوتهم ثانياً على من يليهم من المسلمين"[(٢)].

(١) درء تعارض العقل والنقل (٤٦٢/٧).
(٢) السابق: (١٣٧/٧-١٣٨).

ومن الأمثلة على هذه الصورة:

١- من المعلوم أن القدرية الأولى ينفون قدر الله السابق للحوادث علما وكتابة ومشيئة وخلقا لها وهم مع هذا يزعمون أنهم من أهل التوحيد ولقد بين ابن عباس- رحمه الله- أن القول بإثبات الربوبية والألوهية والأسماء الصفات لله- وهذه الأقسام هي عنوان التوحيد- يستلزم إثبات قدره ونفي ما يضاد ذلك، قال الإمام العمراني مستشهدا بقول ابن عباس في بيانه لتناقض القدرية وشارحا له: "ومن الأدلة المذكورة لنا في الرسالة مما روي عن ابن عباس ﷺ: أنه قال: "الإيمان بالقدر نظام التوحيد فمن آمن بالله وكذب بالقدر كان تكذيبه بالقدر نقضاً لتوحيده"، وصدق ﷺ، فإنه لا يصلح للقدري القول بالتوحيد إلا وناقضه؛ لأن الله- سبحانه- نبه على وحدانيته بقوله- تعالى-: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ [الأنبياء: من الآية ٢٢]، وقوله- تعالى-: ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ [المؤمنون: من الآية٩١] .

ومعنى قوله:﴿ لَفَسَدَتَا ﴾: لوقع الخلاف والتضاد كما نرى ذلك في الشاهد في ملوك الدنيا، ولكان إذا أراد أحدهما شيئاً أمكن الآخر خلافه فيفسد التدبير، وحقق الموحدون التغالب والتمانع في المعنى المراد بقوله: ﴿ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾، فقالوا: لو كانا اثنين لم يخل إما أن يتم ما يريدان، أو لا يتم ما يريدان أو يتم ما يريد أحدهما، فإن تم ما يريدان أدى إلى اجتماع الشيء وضده إذا أراد أحدهما إحياء شيء وأراد الآخر موته، أو أراد أحدهما وجود شيء وأراد الآخر عدمه، وإن لم يتم ما يريدان أدى إلى تناهي قدرتهما وعجزهما، والعاجز لا يكون إلهًا، وإن تم ما يرد أحدهما دون الآخر كان من

تمت إرادته هو المستحق للإلهية، فثبت القول بأن الإله واحد لا شريك له"[١].

٢-قال الإمام ابن بطة في إبطاله لقول الجهمية بخلق القرآن وذلك من خلال إظهار تناقضهم: "ورأيناك أيها الجهمي تزعم أنك تنفي التشبيه عن الله بقولك: إن القرآن مخلوق، ورأيناك شبهت الله ﷻ بأضعف ضعيف من خلقه. فإن كلام العباد مخلوق، وأسماءهم مخلوقة، وعلم الناس مخلوق، وقدرتهم وعزتهم مخلوقة، فأنت بالتشبيه أحق وأخلق، وأنت فليس تجد ما قلته من أن القرآن مخلوق في كتاب الله، ولا في سنة نبيه، ولا مأثورا عن صحابته، ولا عن أحد من أئمة المسلمين"[٢].

خامسا: التفريق بين المتماثلين والجمع بين المختلفين.

من صور التناقض لدى المخالفين: تفريقهم بين الأشياء المتماثلة في الحكم فيصححون الأول ويبطلون الثاني ويجوزون الأول ويمنعون من الثاني وهكذا، ويجمعون في الحكم بين الشيئين المختلفين وهذا حال كل من عاند وخالف الوحي المنـــزل ولقد قص الله علينا في كتابه مثلا لمن هذا صنيعه، فقال- تعالى-: ﴿ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴿٨﴾ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴿٩﴾ قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴿١١﴾ يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٢﴾ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [الذاريات: ٨-١٤].

ورد عن بعض السلف أن هذه الآيات نـــزلت في حق المشركين الذين أقروا أن الله خلقهم وأوجدهم لكنهم في نفس الوقت يكفرون بالبعث بحجة أن الإنسان بعد موته يصبح رميما فأنى يحيه الله ؟"[٣].

---

(١) الانتصار في الرد على المعتزلة القدرية الأشرار (٢/٣٣٠-٣٣١).

(٢) الإبانة لابن بطة العكبري: (٢ / ١٥٦)، تحقيق: د. يوسف الوابل.

(٣) انظر: تفسير القرآن العزيز: المؤلف: أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عيسى بن محمد المري، الإلبيري المعروف بابن أبي زَمَنين المالكي (٤/٢٨٣) المحقق: أبو عبد الله حسين بن عكاشة- محمد بـــن مـــصطفى الكنـــز، الناشر: الفارَوق الحديثة- مصر، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣هـــ - ٢٠٠٢م.

قال الإمام أبو المظفر السمعاني في إيضاحه لوجه التناقض: "وَقيل: ﴿ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴾. أَي: مُنَاقض، ذكره الْقفال الشَّاشِي. وَمعنى التَّنَاقُض فِي هَذَا: أَنهم أقرُّوا بالنشأة الأولى، وأنكروا النشأة الْأُخْرَى، وَهَذَا تنَاقض؛ لِأَن من قدر على النشأة الأولى فَهُوَ على النشأة الْأُخْرَى أقدر"(١).

ولقد عد ابن تيمية – رحمه الله– التفريق بين المتماثلين صورة من صور التناقض، فقال في حق من يثبت أثر الصفة ولكنه ينفي إثبات تلك الصفة لله – تعالى– كمن يثبت وجود محبوب مرضي بلا محبة ولا رضا مما يقوله الجهمية من المعتزلة ونحوهم فإنهم لا يثبتون خلقًا ولا حبًّا ولا رضًا ولا سخطًا ولا غير ذلك سوى المفعولات التي هي من لوازم هذه الأمور في الشاهد فقال: "ولهذا تجد كل شيء من فروع هذه المقالة متى قسته وطردته استلزم عدم الصانع أو التناقض بالجمع بين الإثبات والنفي في الشيء الواحد أو نفي الإيجاب والامتناع في المتماثلين وإلاَّ فما من شيء يقرون به إلاَّ لزمهم فيه نظير ما أنكروه فيما نفوه"(٢).

ومن الأمثلة على هذه الصورة ما يلي:

١– من الأمثلة الطريفة على ما نحن بصدده ما أورده أبو طالب الحلواني حيث قال: "دخل أبو عبد الله الحناطي الأشعري على أبي القصاب الآملي، فأشار له أبو العباس إلى مصحف، فقال: أبا عبد الله اجلس عليه. فقال الحناطي: أيها الشيخ. المصحف؟! قال: أما تقول إنه ورق وزاج"(٣).

ووجه التناقض– هنا–: أنك يا أيها الأشعري إذا كان حقيقة قولك في القرآن يرجع إلى أنه مخلوق فهو إذن كغيره من المخلوقات: كالكرسي

(١) تفسير القرآن للإمام السمعاني: (٥/٢٥٢).
(٢) بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية: (٧/٤١٦).
(٣) ذم الكلام للهروي: (٤/٤٢٠ –٤٢١).

والسجاد الذي يجلس عليه بدون نكير فلماذا إذن تظهرون تعظيم المصحف بعدم الجلوس عليه؟ فهل هذا إلا عين التناقض؟!

٢- ولقد أشار ابن تيمية - رحمه الله- إلى صنيع مشابه من الرافضة في تفريقهم بين المتماثلين في العدالة المتقاربين في الفضل فيكفرون أحدهما ويغلون في الثاني بادعاء العصمة فيه فقال: "وَالْكَلَامُ فِي النَّاسِ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ بِعِلْمٍ وَعَدْلٍ، لَا بِجَهْلٍ وَظُلْمٍ، كَحَالِ أَهْلِ الْبِدَعِ; فَإِنَّ الرَّافِضَةَ تَعْمِدُ إِلَى أَقْوَامٍ مُتَقَارِبِينَ فِي الْفَضِيلَةِ، تُرِيدُ أَنْ تَجْعَلَ أَحَدَهُمْ مَعْصُومًا مِنَ الذُّنُوبِ وَالْخَطَايَا، وَالْآخَرَ مَأْثُومًا فَاسِقًا أَوْ كَافِرًا، فَيَظْهَرُ جَهْلُهُمْ وَتَنَاقُضُهُمْ، كَالْيَهُودِيِّ وَالنَّصْرَانِيِّ إِذَا أَرَادَ أَنْ يُثْبِتَ نُبُوَّةَ مُوسَى أَوْ عِيسَى، مَعَ قَدْحِهِ فِي نُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ فَإِنَّهُ يَظْهَرُ عَجْزُهُ وَجَهْلُهُ وَتَنَاقُضُهُ، فَإِنَّهُ مَا مِنْ طَرِيقٍ يُثْبِتُ بِهَا نُبُوَّةَ مُوسَى وَعِيسَى إِلَّا وَتَثْبُتُ نُبُوَّةُ مُحَمَّدٍ ﷺ بِمِثْلِهَا أَوْ بِمَا هُوَ أَقْوَى مِنْهَا، وَمَا مِنْ شُبْهَةٍ تَعْرِضُ عَلَى نُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ إِلَّا وَتَعْرِضُ فِي نُبُوَّةِ مُوسَى وَعِيسَى- عَلَيْهِمَا السَّلَامُ - بِمَا هُوَ مِثْلُهَا أَوْ أَقْوَى مِنْهَا، وَكُلُّ مَنْ عَمَدَ إِلَى التَّفْرِيقِ بَيْنَ الْمُتَمَاثِلَيْنِ، أَوْ مَدْحِ الشَّيْءِ وَذَمِّ مَا هُوَ مَنْ جِنْسِهِ، أَوْ أَوْلَى بِالْمَدْحِ مِنْهُ أَوْ بِالْعَكْسِ، أَصَابَهُ مِثْلُ هَذَا التَّنَاقُضِ وَالْعَجْزِ وَالْجَهْلِ. وَهَكَذَا أَتْبَاعُ الْعُلَمَاءِ وَالْمَشَايِخِ إِذَا أَرَادَ أَحَدُهُمْ أَنْ يَمْدَحَ مَتْبُوعَهُ وَيَذُمَّ نَظِيرَهُ، أَوْ يُفَضِّلَ أَحَدَهُمْ عَلَى الْآخَرِ بِمِثْلِ هَذَا الطَّرِيقِ"[(١)].

وأما مثال ما جمعوا فيه بين المختلفين في الحكم: فكحكم الوعيدية من الخوارج والمعتزلة على مرتكب الكبيرة بالخلود في النار مساواة له بالكفار وفي هذا السياق قال الإمام القصاب: "قوله: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔاتِهِمْ أُغْرِقُواْ فَأُدْخِلُواْ نَارًا﴾ [نوح: من الآية ٢٥]، دليل

(١) منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية: (٣٣٧/٤).

على أن اسم الخطيئة واقع على الكفر، ومعناها: أنها ضد الصواب، فمن خالف اللَّه ﷻ في الإيمان الذي آمن به، أو واقع ما نهى عنه من كفر، أو معصية فهو مخطئ غير مصيب، وإنما تختلف عقوبة الفعلين فقط. فليس لتعلق المعتزلة في باب الوعيد باسم خطيئة ذكر في عقوبتها خلود وجه، لو أنصفوا من أنفسهم، وتدبروا الأمور بحقائقها، ولو ميزوا تناقض قولهم، وقلة النظر إلى ذلك في باب العدل، لعلموا أن جمع الخلود على من عصى الله ﷻ عمره، ومن عصاه يومه الذي مات فيه بغير توبة بعيد من العدل، الذي يدعون معرفته، فضلاً عمن كفر به عمره، فيجمع بينه وبين من آمن به دهره. ولئن كان هذا- عندهم- غير ثالم في العدل، وثلم في جمع القضاء، والعقوبة على عبد، مع عظم ذاك، وخفة هذا، ألا يزول العجب ممن يتعجب من مكابرهم، أو فرط جنونهم- أكبر- نعوذ بالله من الضلالة"[1].

* * *

(١) النكت الدالة على البيان في أنواع العلوم والأحكام (٤/٤٢٣-٤٢٤).

المبحث السابع
آثار التناقض

لا شك أن هناك آثارا سلبية تنتج عن التناقض لا يستطيع المتناقض منها فكاكا إلا أن يرجع عن المقولات التي أدت إلى تناقضه، ومن أبرز تلك الآثار ما يلي:

أولا: التزام اللوازم الفاسدة.

كثيرا ما يقود المتناقض تناقضه إلى التزام اللوازم الفاسدة بل الأشد فسادا مما حرص على عدم الإقرار به سواء تنبه لذلك أو كان من الغافلين، ومن الأمثلة على ذلك: أن المعتزلة تقول: إن الإنسان يستقل بإرادته وفعله عن الله، ولأجل ذلك لجئوا إلى التأويلات البدعية الباطلة لنصوص الوحي، ومن ذلك: تأويلهم لقوله- تعالى-: ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ [المائدة: من الآية٤١][1].

ولقد بين الإمام القصاب الكرجي أنهم بتأويلهم هذا وقعوا في شر مما فروا منه فقال: إن هذه الآية: "حجة على المعتزلة والقدرية لذكر الفتنة بلفظها ونفي النفع والضر عن نبيه ﷺ في دفعها.

فإن قيل: الفتنة هاهنا الاختبار. قيل: لو كان كذلك لكان- والله أعلم- ومن يرد الله فتواه لا فتنته، كما قال لموسى ﷺ: ﴿وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا﴾ [طه: من الآية ٤٠]، وكيف يريد اختبار قوم لم يرد تطهير قلوبهم، وهو لو كان كذلك لكان أبلغ في الحجة عليهم حيث يزعمون بألسنتهم أنه جل وتعالى يختبر من لا يطهر قلبه من دنس الكفر، ولا يخلو بالإيمان أبدا، وكيف يطهر وقد منعه التطهير بارتفاع إرادته عنه، . وهل هذا إلا

(١) انظر: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل: أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (٦٣٣/١)، الناشر: دار الكتاب العربي– بيروت، الطبعة: الثالثة – ١٤٠٧ هـ ، وشرح الأصول الخمسة: (٤٦١).

الذي أنكروه و لم يجيزوا عليه أن يدعو إلى الهداية من قد أضله، ويعذب على فعل هو قضاؤه، فأرى تأويلهم في الفتنة قد أوقعهم فيما هو أشد عليهم مما فروا منه.

وهذا وإن كان من أكبر الحجة عليهم، فليست الفتنة هاهنا بمعنى الاختبار، إذ الاختبار عام على جميع الناس، قال الله- تبارك وتعالى-: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٣﴾ [العنكبوت: ١- ٣]، وقال: ﴿وَلِيَبْتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [آل عمران: من الآية ١٥٤]، وقال: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَاْ أَخْبَارَكُمْ ۝٣١﴾ [محمد: ٣١] والفتنة هم المرادون بها خاصة لقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ﴾ [المائدة: من الآية ٤١]"[(١)].

ثانيا: التقصير في إبطال قول الكفار والمنافقين وتسلطهم عليهم.

لقد قاد تناقض بعض مثبتي الصفات من الكلابية والأشاعرة إلى تقصيرهم في مناظرتهم للنفاة الصفات من الفلاسفة والجهمية والمعتزلة وبالتالي تسلط النفاة للصفاة عليهم قال ابن تيمية- رحمه الله- في وصفه لهذا الواقع المرير: "نحن لا نرضى أن نجيبكم بما أجبتم به النفاة، وذلك أنكم مقصرون في مناظرة النفاة لما أثبتموه عقلاً وسمعاً، فإنكم في كثير من مناظراتكم لهم تصيرون إلى المكابرة ودعوى ما يعلمون هم نقيضها، كما تفعلونه في مسألة الرؤية والكلام وإثبات الصفات بدون إثبات لوازم ذلك؛ إذ أنتم كثيرًا ما تثبتون الشيء بدون لوازمه، أو مع وجود منافيه، ومن هنا تسلط عليكم القرامطة والفلاسفة والمعتزلة، ونحوهم من النفاة، وكلام أئمتكم معهم كلام قاصر، يظهر قصوره لمن كان خبيراً بالعقليات، وسبب ذلك: تقصيرهم في

(١) النكت الدالة على البيان في أنواع العلوم والأحكام: الإمام الحافظ/ محمد بن على الكرجي القصَّاب (١/٣٠٤-٣٠٥).

مناظرهم، حيث سلموا لهم مقدمات عقلية ظنوها صحيحة وهي فاسدة، فاحتاجوا إلى إثبات لوازمها، فاضطروا إما إلى موافقتهم على الباطل، وإما على التناقض الذي يظهر به فساد قولهم، وإما إلى العجز الذي يظهر به قصورهم وانقطاعهم"[(١)].

ثالثا: الاستطالة على المؤمنين بالباطل.

لم يكتف بعض المخالفين لمنهاج السلف بتسلط من هو أشد ضلالا منهم عليهم، وكفى بها رزية لو كانوا يفقهون فبدل أن يرجعوا إلى منهاج أهل السنة والجماعة أوغلوا في ضلالهم ضلالا فاستطالوا على أهل السنة بالباطل والبهتان.

وفي هذا السياق يقول الإمام شيخ الإسلام ابن تيمية مكملا ما بدأه سابقا في الصورة الثانية من آثار التناقض فيقول عن الكلابية والأشاعرة: "ثم أخذوا يناظرون أهل الإثبات للعلو ونحوه، بما به ناظرهم أولئك، ويتسلطون على العاجز من مناظرهم مع المثبتين، كما تسلط عليهم أولئك، فصاروا بمنـــزلة من قصروا في جهاد من يليهم من الكفار حتى غلبوهم وهزموهم، فقاموا يقاتلون من يليهم من المسلمين، كما قاتلهم أولئك الكفار، حتى ظهر الباطل والكفر والضلال، بتفريطهم أولا في جهاد من يليهم من الكفار، وعداوتهم ثانياً على من يليهم من المسلمين.

وصاروا على ضد ما وصف الله به المؤمنين حيث قال: ﴿ **أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ** ﴾ [الفتح: من الآية ٢٩]، ﴿ **أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ** ﴾ [المائدة: من الآية ٥٤]، فصاروا أعزة على المؤمنين أذلة على الكافرين. كما نعت النبي ﷺ الخوارج حيث قال: «**يقتلون أهل الإسلام ويدعون أهل الأوثان**»[(٢)]. وحال الجهمية

(١) درء تعارض العقل والنقل: (١٣٧/٧).

(٢) صحيح البخاري، (١٣٧/٤)، كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: قول الله ﷻ: **{وأما عـــاد فـــأهلكوا بريح صرصر عاتيه}** [الحاقة: ٦]: شديدة، برقم (٣٣٤٤)، وصحيح مسلم، (٧٤١/٢)، كتاب: الزكاة، باب: ذكر الخوارج وصفاتهم، برقم (١٠٦٤).

والرافضة شر من حال الخوارج، فإن الخوارج كانوا يقاتلون المسلمين ويدعون قتال الكفار، وهؤلاء أعانوا الكفار على قتال المسلمين وذلوا للكفار، فصاروا معاونين للكفار أذلاء لهم، معادين للمؤمنين أعزاء عليهم، كما قد وجد مثل ذلك في طوائف القرامطة والرافضة والجهمية النفاة والحلولية. ومن استقرأ أحوال العالم رأى من ذلك عبراً، وصار في هؤلاء شبه من الذين قال الله- تعالى- فيهم: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ ﴾ [النساء: ٥١-٥٢]، ولهذا تجد كثيرًا من هؤلاء النفاة يصنف في الشرك والسحر وعبادة الكواكب والأوثان، وفي النفاق والزندقة التي توجد في كلام كثير من الفلاسفة وغيرهم، بل يخضع لهؤلاء الكفار والمنافقين ويذل لهم، ويريد أن يعلو على المؤمنين ويقهرهم، وإن كان هذا بسبب ضعف من قاتله من المؤمنين وتفريطهم وعداوتهم، كما أن قهر أولئك الكفار له كان بسبب ضعفه الحاصل من تفريطه وعدوانه، فالذم لاحق له بقدر ما فرط فيه من حقوق الله وتعداه من حرماته، كما أن هؤلاء يلحقهم أيضاً الذم بقدر ما فرطوا فيه من حقوق الله وتعدوه حرماته، وقد قال- تعالى-: ﴿ وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ [الزخرف: ٣٩]"[1].

رابعا: الحيرة.

لقد أبان شيخ الإسلام ابن تيمية أن من آثار تناقض أهل الأهواء وقوعهم في الحيرة والاضطراب، فقال: "أن يقال: هم إذا أعرضوا عن الأدلة الشرعية لم يبق معهم إلا طريقان: إما طريق النظار: وهي الأدلة القياسية العقلية، وإما طريق الصوفية: وهي الطريقة العبادية الكشفية، وكل من جرب هاتين الطريقتين علم أن ما لا يوافق الكتاب

(١) درء تعارض العقل والنقل: (٧/١٣٧-١٣٩).

والسنة منهما فيه من التناقض والفساد ما لا يحصيه إلا رب العباد، ولهذا كان من سلك إحداهما إنما يؤول به الأمر إلى الحيرة والشك، إن كان له نوع عقل وتمييز، وإن كان جاهلاً دخل في الشطح والطامات التي لا يصدق بها إلا أجهل الخلق. فغاية هؤلاء الشك، وهو عدم التصديق بالحق، وغاية هؤلاء الشطح وهو التصديق بالباطل، والأول يشبه حال اليهود، والثاني يشبه حال النصارى"(١).

بل لم يسلم من هذه الحيرة والاضطراب الموصفون بأنهم أساطين العقل وأهل النظر وفيهم قال ابن تيمية- رحمه الله- في سياق نفيهم لعلو الله- تعالى- على خلقه: "ولا يعرف هذا القول إلا عمن هو مجروح بنقص العقل والدين، معروف بكثرة التناقض والتهافت في مقاله، ولهذا يشهدون على أنفسهم بالحيرة، ويرجعون عما يعتقدونه إلى دين العجائز، ولا يعرف فيمن قال هذا القول إلا من يشهد عليه بتوحّشه بأنه يجحد بعض العلوم الضرورية العقلية، وهذا موجود في مناظرة بعضهم، دع كون القائلين بمثل هذا القول، ليس فيهم إلا من له في الإسلام مقالة، نسب لأجلها إلى ردة أو نفاق، أو جهل أو تقليد، وإن كانوا قد تابوا من ذلك، وهذا القدر معروف عند أهل النظر، واعتبر ذلك بما ذكره «أبو محمد عبد الله بن سعيد بن كلاّب» الذي هو إمام المتكلمين الصفاتية، وهو الذي سلك سبيله وائتم به «أبو الحسن الأشعري» و «أبو العباس القلانسي» ونحوهم من المتكلمة أهل الإثبات الصفاتية"(٢).

كما ضرب ابن تيمية مثالا على المتصوفة بمحي الدين ابن عربي الطائي فقال- رحمه الله-: "وإن كان «ابن عربي» يرى أن المعدوم شيء ثابت في العدم كقول من يقول ذلك من المعتزلة والرافضة، ويرى أن وجود الحق فاض عليهم فيرى أن وجود الكائنات عين وجود الحق، وأن الناكح هو المنكوح، والشاتم هو المشتوم وكما قال

(١) السابق: (٥/٣٤٥-٣٤٦).
(٢) بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية: (١/٦٧-٦٩).

بعضهم: من قال لك: إن في الكون سوى الله فقد كذب، فقال له صاحبه: من الذي كذب.

وقد يبتلى ببعض ذلك حالا بعض جهال المتصوفة إذا كانوا قد أقروا بما ظنوا أنه هو وحاروا فيه، فإن الحيرة ظاهرة عليهم لما هم فيه من التناقض، والمتعبدة فإنهم لما توجهوا بقلوبهم إلى الله وذكره وأحبوه شهدت قلوبهم الوجود العام بالمخلوقات الصادر عن الحق الذي خلق السموات والأرض فاعتقدوا أن هذا الحق المخلوق هو الحق الخالق، فأشبهوا من بعض الوجوه من رأى شعاع الشمس فظن أنها هي الشمس، أو رأى الظل فظن أنه الشخص"[1].

ومن أعظم دلائل حيرة واضطراب أهل الأهواء والبدع تكفيرهم وتبديعهم واستحلالهم لدماء بعضهم بعضا كما هو معروف عنهم منذ القدم، وفي ذلك قال الإمام ابن بطة الحنبلي- رحمه الله-: "فأما أهل البدع يا أخي- رحمك الله- فإنهم يقولون على الله ما لا يعلمون، ويعيبون ما يأتون، ويجحدون ما يعلمون، ويبصرون القذى في عيون غيرهم، وعيونهم تطرف على الأجذال، ويتهمون أهل العدالة والأمانة في النقل، ولا يتهمون آراءهم وأهواءهم على الظن، وهم أكثر الناس اختلافا، وأشدهم تنافيا وتباينا، لا يتفق اثنان من رؤسائهم على قول، ولا يجتمع رجلان من أئمتهم على مذهب.

فأبو الهذيل يخالف النظام، وحسين النجار يخالفهما، وهشام الفوطي يخالفهم، وثمامة بن أشرس يخالف الكل، وهاشم الأوقص وصالح بن قبة يخالفانهم، وكل واحد منهم قد انتحل لنفسه دينا ينصره، وربا يعبده، وله على ذلك أصحاب يتبعونه، وكل واحد منهم يكفر من خالفه، ويلعن من لا يتبعه، وهم في اختلافهم وتباينهم

(١) المستدرك على مجموع فتاوى شيخ الإسلام، المؤلف: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني (٣٦/١)، جمعه ورتبه وطبعه على نفقته: محمد بن عبد الرحمن بن قاسم.

كاختلاف اليهود والنصارى، كما قال الله- تعالى-: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ ﴾ [البقرة: من الآية ١١٣]، فاختلافهم كاختلاف اليهود والنصارى؛ لأن اختلافهم في التوحيد، وفي صفات الله، وفي الكيفية، وفي قدرة الله، وفي عظمته، وفي نعيم الجنة، وفي عذاب النار، وفي البرزخ، وفي اللوح المحفوظ، وفي الرق المنشور، وفي علم الله، وفي القرآن، وفي غير ذلك من الأمور التي لا يعلمها نبي مرسل، إلا بوحي من الله، وليس يعدم من رد العلم في هذه الأشياء إلى رأيه، وهواه، وقياسه، ونظره، واختياره من الاختلاف العظيم، والتباين الشديد. وأما الرافضة فأشد الناس اختلافا وتباينا وتطاعنا، فكل واحد منهم يختار مذهبا لنفسه يلعن من خالفه عليه، ويكفر من لم يتبعه، وكلهم يقول: إنه لا صلاة، ولا صيام، ولا جهاد، ولا جمعة، ولا عيدين، ولا نكاح، ولا طلاق، ولا بيع، ولا شراء إلا بإمام، وإنه من لا إمام له فلا دين له، ومن لم يعرف إمامه فلا دين له، ثم يختلفون في الأئمة، فالإمامية لها إمام تسوده وتلعن من قال: إن الإمام غيره، وتكفره، وكذلك الزيدية لها إمام غير إمام الإمامية، وكذلك الإسماعيلية، وكذلك الكيسانية والبترية، وكل طائفة تنتحل مذهبا وإماما، وتلعن من خالفها عليه، وتكفره"[(١)].

* * *

(١) الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية ومجانبة الفرق المذمومة لأبي عبد الله عبيد الله بن محمد بن بطة العكبري الحنبلي (:٢/٥٤-٥٦)، المحقق: رضا بن نعسان معطي دار النشر: دار الراية ، البلد: الرياض، الطبعة: الثانية، سنة الطبع: ١٤١٥هـ، ١٩٩٤م.

الخاتمة وأهم النتائج

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده صلى الله وسلم وبارك عليه، وبعد،،

فمن خلال دراسة هذا الموضوع توصلت إلى بعض النتائج ومن أهمها:

أولا: أنه عند النظر فيما ورد في معاجم اللغة العربية نجد أن من الاستعمال اللغوي للفظة "التناقض" استعماله في نقض البناء والعهد والحبل، والمراجعة والمرادة في الكلام، ويطلق كذلك على المخالفة، والتناقض في القول، أما في الاصطلاح، فإنه لم يرد لفظ التناقض في الكتاب والسنة ولكن ورد أصله الذي استق منه في صيغ متعددة، ونلاحظ أن معاني هذه الألفاظ يدور حول الأصل اللغوي للفظ (التناقض) ألا وهو: النكث للشيء.

ثانيا: أن التناقض أقسام منها: التناقض العام، وهو: أن يكون موجب أحد الدليلين ينافي موجب الآخر: إما بنفسه، وإما بلازمه، والتناقض الخاص، وهو: اختلاف قضيتين بالسلب والإيجاب على وجه يلزم من صدق إحداهما كذب الأخرى.

ثالثا: أن أهل السنة والجماعة وعلماء السلف لم يقعوا في التناقض، والسبب في ذلك هو اتباعهم هدي القرآن والسنة؛ لذا فإنهم لم يضلوا و لم يعملوا عقولهم فيما فيه نص؛ لذا اتفقوا و لم يتناقضوا أما أهل الأهواء والبدع فإنهم تناقضوا لاعتمادهم كلية على عقولهم.

رابعا: أن أسباب الوقوع في التناقض كثيرة، ومنها: الجهل بالكتاب والسنة وترك اتباعهما ومخالفتهما، وإساءة الظن بالوحي بالقول إنه لا يستطيع الإجابة على التساؤلات العقدية، ومخالفة العقل السليم والاعتماد والتسليم للأصول العقلية الفاسدة، وأن يدخل في السمع أو العقل ما ليس فيهما، والخلط أو محاولة التوفيق بين الكتاب

والسنة وبين الأصول البدعية الفاسدة، والتقليد، ومخالفة الإجماع، واتباع الهوى، والجهل باللغة العربية على مستوى مفرداتها وأساليبها في الخطاب، واتباع التشابه، ومخالفة الفطرة السليمة.

خامسا: أن صور التناقض كثيرة منها: إثبات الشيء ونفي عينه معا، وإبطال قول الخصم والقول به في نفس الوقت، وأن يقول القول ثم يرجع عنه، وإثبات القول وعدم التزام لوازمه أو مع إثبات ما ينافيها، والتفريق بين المتماثلين والجمع بين المختلفين.

سادسا: أن من آثار التناقض التزام اللوازم الفاسدة، والاستطالة على المؤمنين بالباطل، والوقوع في الحيرة.

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد،

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

* * *

فهرس المصادر والمراجع

١- **الإبانة الصغرى (الشرح والإبانة على أصول أهل السنة والديانة)**: عبيد الله ابن محمد بن بطة العكبري، المحقق: رضا بن نعسان معطي، الناشر: مكتبة العلوم والحكم، سنة النشر: ١٤٢٣ – ٢٠٠٢.

٢- **الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية ومجانبة الفرق المذمومة** لأبي عبد الله عبيد الله ابن محمد بن بطة العكبري الحنبلي (الإبانة الكبرى): المحقق: رضا بن نعسان معطي دار النشر: دار الراية البلد: الرياض الطبعة: الثانية سنة الطبع: ١٤١٥هـ، ١٩٩٤م.

٣- **بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية**: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي . المحقق: مجموعة من المحققين . الناشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف . الطبعة: الأولى، ١٤٢٦هـ.

٤- **التدمرية**: تحقيق الإثبات للأسماء والصفات وحقيقة الجمع بين القدر والشرع: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي . المحقق: د. محمد بن عودة السعوي، الناشر: مكتبة العبيكان – الرياض .الطبعة: السادسة ١٤٢١هـ / ٢٠٠٠م.

٥- **تفسير القرآن العزيز**: أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عيسى بن محمد المري، الإلبيري المعروف بابن أبي زَمَنِين المالكي . المحقق: أبو عبد الله حسين بن عكاشة – محمد بن مصطفى الكنز الناشر: الفاروق الحديثة – مصر/ القاهرة الطبعة:

الأولى، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م.

٦- **تفسير القرآن** لأبي المظفر، منصور بن محمد السمعاني، المحقق: ياسر بن إبراهيم وغنيم بن عباس بن غنيم، الناشر: دار الوطن، الرياض– السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤١٨هـ- ١٩٩٧م.

٧- **تفسير القرآن** لأبي المظفر، منصور بن محمد بن عبد الجبار ابن أحمد المروزى السمعاني . المحقق: ياسر بن إبراهيم وغنيم بن عباس بن غنيم الناشر: دار الوطن، الرياض – السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤١٨هـ- ١٩٩٧م.

٨- **التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد:** أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد ابن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي تحقيق: مصطفى بن أحمد العلوي، محمد عبد الكبير البكري . الناشر: وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية – المغرب . عام النشر: ١٣٨٧هـ.

٩- **جامع الأصول،** لمجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني الجزري ابن الأثير .تحقيق: عبد القادر الأرنؤوط - التتمة تحقيق بشير عيون .الناشر: مكتبة الحلواني - مطبعة الملاح - مكتبة دار البيان . الطبعة: الأولى.

١٠- **جامع البيان عن تأويل آي القرآن** لمحمد بن جرير الطبري. تحقيق: الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي .بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات الإسلامية بدار هجر الدكتور عبد السند حسن يمامة، الناشر: دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.

١١- **الحيدة والاعتذار في الرد على من قال بخلق القرآن** لأبي الحسن عبد العزيز ابن يحيى بن مسلم بن ميمون الكناني المكي .المحقق: علي بن محمد بن ناصر

الفقهي، الناشر: مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الثانية، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م.

١٢- **درء تعارض العقل والنقل**: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي . تحقيق: الدكتور محمد رشاد سالم. الناشر: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، المملكة العربية السعودية. الطبعة: الثانية، ١٤١١هـ - ١٩٩١م.

١٣- **ذم الكلام وأهله**: أبو إسماعيل عبد الله بن محمد بن علي الأنصاري الهروي (المتوفى: ٤٨١هـ)، المحقق: عبد الرحمن عبد العزيز الشبل . الناشر: مكتبة العلوم والحكم - المدينة المنورة .الطبعة: الأولى، ١٤١٨هـ -١٩٩٨م.

١٤- **رسالة السجزي إلى أهل زبيد في الرد على من أنكر الحرف والصوت**: لأبي نصر عبيد الله بن سعيد بن حاتم السجزيّ الوائلي البكري، المحقق: محمد با كريم با عبد الله الناشر: عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الثانية، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م.

١٥- **روضة الناظر وجنة المناظر في أصول الفقه على مذهب الإمام أحمد بن حنبل** لموفق الدين عبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسي . الناشر: مؤسسة الريّان للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة: الطبعة الثانية ١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م.

١٦- **السنة** للإمام عبد الله بن أحمد بن حنبل الشيباني. تحقيق: د. محمد سعيد سالم القحطاني، الناشر: دار ابن القيم – الدمام، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ.

١٧- **شرح الأصول الخمسة** للقاضي عبد الجبار الهمداني المعتزلي. تحقيق: د.عبدالكريم عثمان، مكتبة وهبة، الطبعة الثانية، القاهرة.

١٨- **الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية**، لأبي نصر إسماعيل بن حماد الجوهري،

تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، الناشر: دار العلم للملايين– بيروت، الطبعة: الرابعة ١٤٠٧هـ – ١٩٨٧م.

١٩- **الصفدية** لتقي الدين أبي العَباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية الحراني . المحقق: محمد رشاد سالم . الناشر: مكتبه ابن تيمية، مصر الطبعة: الثانية، ١٤٠٦هـ.

٢٠- **صون المنطق والكلام عن فني المنطق والكلام للإمام السيوطي**. نشر وتعليق: علي سامي النشار.

٢١- **الفتاوى الكبرى** لابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي، الناشر: دار الكتب العلمية الطبعة: الأولى، ١٤٠٨هـ – ١٩٨٧م.

٢٢- **فصول من كتاب الانتصار الأصحاب الحديث**: لأبي المظفر منصور بن محمد ابن عبدالجبار بن أحمد السمعاني التميمي. تحقيق: محمد بن حسين بن حسن الجيزاني، الناشر: مكتبة أضواء المنار – المدينة المنورة الطبعة الأولى، ١٩٩٦م.

٢٣- **الكشاف عن حقائق غوامض التنـــزيل**: أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله. الناشر: دار الكتاب العربي — بيروت. الطبعة: الثالثة – ١٤٠٧هـ.

٢٤- **لسان العرب**، لمحمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الناشر: دار صادر — بيروت .الطبعة: الثالثة – ١٤١٤هـ.

٢٥- **المبين في شرح الفاظ الحكماء والمتكلمين** لسيف الدين الآمدي: تحقيق: عبد الأمير الأعسم. الناشر: الهيئة المصرية — القاهرة .الطبعة: الثانية/ ١٩٨٩م.

٢٦- **مجموع الفتاوى لشيخ الاسلام بن تيمية الحراني**، المحقق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، الناشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة

النبوية، المملكة العربية السعودية، عام النشر: ١٤١٦هـ/١٩٩٥م.

٢٧- **المستدرك على مجموع فتاوى شيخ الإسلام** المؤلف: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني .جمعه ورتبه وطبعه على نفقته: محمد بن عبد الرحمن بن قاسم .

٢٨- **المعجم الفلسفي** لجميل صليبا، الناشر: الشركة العالمية للكتاب– بيروت. تاريخ الطبع: ١٤١٤ هـ - ١٩٩٤م.

٢٩- **معجم مقاييس اللغة،** لأحمد بن فارس بن زكريا القزويني الرازي، المحقق: عبد السلام محمد هارون، الناشر: دار الفكر، عام النشر: ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

٣٠- **مفاتيح الغيب** لمحمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري . الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت الطبعة: الثالثة - ١٤٢٠ هـ.

٣١- **منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية** لتقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية. المحقق: د. محمد رشاد سالم، الناشر: مؤسسة قرطبة، الطبعة: الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ.

٣٢- **المواقف:** عضد الدين عبد الرحمن بن أحمد الإيجي، الناشر: دار الجيل – بيروت .الطبعة الأولى، ١٩٩٧، تحقيق: د. عبد الرحمن عميرة.

٣٣- **النبوات** لتقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية الحراني الحنبلي. المحقق: عبد العزيز بن صالح الطويان الناشر: أضواء السلف، الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م.

٣٤- **نقض الإمام أبي سعيد عثمان بن سعيد على المريسي الجهمي العنيد فيما افترى على الله ﷻ من التوحيد** لأبي سعيد عثمان بن سعيد بن خالد بن سعيد

الدارمي السجستاني. المحقق: رشيد بن حسن الألمعي، الناشر: مكتبة الرشد للنشر والتوزيع الطبعة: الطبعة الأولى ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م.

٣٥- **النكت الدالة على البيان في أنواع العلوم والأحكام** للإمام الحافظ محمد بن على الكرجي القصَّاب.تحقيق: د. علي بن غازي التويجري وآخرون، دار النشر: دار القيم ـ دار ابن عفان، الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.

٣٦- **الوسيط في تفسير القرآن المجيد**: لأبي الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري، الشافعي، تحقيق وتعليق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، الشيخ علي محمد معوض، الدكتور أحمد محمد صيرة، الدكتور أحمد عبد الغني الجمل، الدكتور عبد الرحمن عويس، قدمه وقرظه: الأستاذ الدكتور عبد الحي الفرماوي، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م.

* * *